مراقبون

من زمن التوهج

هبة الدين الشهرستاني

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (2059) السنة الثامنة

الخميس (3) اذار 2011

4

رحلة السيد هبة الدين الشهرستاني الى سلطنة عمان والخليج العربي

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (2059)
السنة الثامنة
الخميس (3)
اذار 2011

هوامش في ذكرى السيد هبة الدين الشهرستاني

الباحث زين النقشبندي

الاول: اذكر ان اول كتب االسيد هبة الدين الشهرستاني التي قرأتها واثارت في النفس ما اثارت وتركت ما تركت كتاب " نهضة الحسين" او سلسلة حوادث تاريخية حول فاجعة الامام الحسين بن علي ، بغداد ط ١ : ١٩٢٧ ، ط٢ : ١٩٣٧م وانا ما زلت طالباً في المرحلة المتوسطة ، كان ذلك في سبعينيات القرن الماضي ، ففي احد الايام عند زيارتي الى مكتبة يوسف جموعة الواقعة في منطقة المربعة والتي كانت تبيع الكتب القديمة عرض عليّ صاحبها ابو يعقوب مجموعة من الكتب القديمة كان كتاب نهضة الحسين من بينها وكانت هذه المرة الاولى التي اقرأ فيها كتابا من تأليف السيد هبة الدين ، وكم اعجبت بطريقة طرحه وتحليله للرواية التاريخية وعرضه وتحليله للاسباب التي كانت وراء اسباب ضغينة يزيد بن معاوية على الامام الحسين رضي الله عنه.

ثانياً: في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات عند بداية منتدى بغداد التابعة لامانة العاصمة وازدياد نشاط المجالس الادبية مثل مجلس الدكتور محيي الدين ومجلس الدكتور حسين امين ومجلس منتدى الامام ابو حنيفة ومجلس الخاقاني ومجلس الشعرباف والاستاذ الغبان والشيخ جلال الدين الحنفي ومجلس الدكتور رشيد العبيدي ومجلس مكتبة الجوادين ، اضافة الى المحاضرات والندوات التي كانت تعقد في بعض المؤسسات الثقافية والبحثية والعلمية التي كان يلقيها اساتذة اعلام معروفون من امثال الدكتور علي الوردي والدكتور حسين امين والدكتور حسين علي محفوظ والشيخ جلال الحنفي والمرحوم الدكتور حارث عبدالحميد رئيس المركز البارسايكولوجي في جامعة بغداد سابقاً وغيرهم ، في هذه المجالس كنت قد تعرفت على المرحوم السيد جواد نجل السيد هبة الدين وتوطدت هذه العلاقة من خلال اللقاءات والزيارات المتكررة الى مكتبة الجوادين في الصحن الكاظمي الشريف ودار السيد العامرة في الحارثية بكرخ بغداد حتى اصبح من الطقوس اليومية تقريباً في نهاية التسعينات ان يتصل السيد جواد بي يومياً بعد الساعة العاشرة ليلاً ليسأل او يستفسر عن بعض الكتب او المصادر التي غالباً ما كان يرغب بالحصول عليها لغرض اضافتها الى مكتبته العامرة او لطلبها واهدائها لاحد الاصدقاء او طلبة العلم او الباحثين او الصحفيين من الذين كانوا يتصلون به ، وحينما بدأت بجمع بعض البحوث لتي القيتها في مركز احياء التراث العلمي التابع لجامعة بغداد عن اوائل المطبوعات والمكتبات البغدادية وجدت كل المساعدة من قبل السيد الجواد فقد ذكر الي في حينها معلومات عن بعض المكتبات القديمة التي كانت موجودة في مدينة الكاظمية في مطلع القرن الماضي ثم تفضل علي بعد ذلك بكتابة هذه المعلومات لغرض توثيقها ونشرها وقد ورد في هذه النبذ اشارات مهمة تتعلق بصاحب الذكرى السيد هبة الدين الشهرستاني ، فقد ذكر لي عند حديثه عن مكتبة عن الاعتماد لصاحبها الحاج علي محمد الكتبي :-

(انه في ٢٨ مايس ١٩٢٢ عندما توفيت والدة العلامة الحجة السيد هبة الدين وزير المعارف يومها في بغداد ونقل جثمانها بتشييع مهيب الى الكاظمية ، قدم الحاج علي محمد غرفته في الصحن والتي كانت مخزنا لمكتبته في الصحن الى السيد هبة الدين لدفنها في هذه الحجرة ونقل ما فيها الى مكتبته مقابل الصحن في داخل السوق يومها قبل ان تصبح مطلة على الشارع عند فتحه في الاربعينيات من القرن الماضي ثم غدت الغرفة مدفنا لافراد اسرة السيد هبة الدين ثم مجلسا لتدريسه علوم القران في تلك الغرفة) .

اما صاحب مكتبة المفيد الشيخ محمود الكتبي فقد ذكر لي السيد جواد رحمه الله :

(كانت تقع غرفته الى اليمين الداخل من باب القبلة الى الصحن الكاظمي في الغرفة الخامسة خاصة للشيخ صالح الكاظمي المدرس حيث كان يدرس فيه بعض الأطفال القراءة والكتابة والقرآن الكريم إلى أن يختمه الطفل في بدء نشأته.. وكان يبيع أجزاء القرآن الأربعة الأواخر لأرباب الأطفال حتى يعلموا أطفالهم هذه الأجزاء الحاوية على قصار السور من القرآن الكريم كما كان يبيع الدفاتر لهم وفي نفس الوقت كان يجلد لمن يشاء تجليد كتابه بشكل بدائي محض، وذلك في أوائل القرن العشرين وأواخر القرن التاسع عشر، ولما توفي عام ١٩١٠ ودفن في نفس الحجرة الخامسة من يمين الداخل إلى الصحن من باب القبلة وتولى أبنه الشيخ عبد الله مهام أبيه الشيخ صالح يدرس الأطفال ويجلد الكتب، ويبيع أجزاء القرآن الكريم وزاد عليها أنه تولى بيع كتب الأدعية ونظائرها، وكان بارعاً في تعليم القراءة والكتابة وجودة الخط للأطفال الناشئين على يديه حتى أشتهر بها في البلدة، وقد تميز بورعه وزهده وتقاه نظير أبيه مما جعل أولياء الأطفال يودعون أطفالهم أليه للغرض المتقدم ذكره.

وعند وفاة الشيخ عبد الله بن الشيخ صالح في عام ١٩٣٠ تولى ابنه الشيخ

حينما بدأت بجمع بعض البحوث لتي القيتها في مركز احياء التراث العلمي التابع لجامعة بغداد عن اوائل المطبوعات والمكتبات البغدادية وجدت كل المساعدة من قبل السيد الجواد فقد ذكر الي في حينها معلومات عن بعض المكتبات القديمة التي كانت موجودة في مدينة الكاظمية في مطلع القرن الماضي

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2059)
السنة الثامنة
الخميس (3)
اذار 2011

محمود مهام أبيه ووسع أعماله بحيث شرع إضافة إلى ما تقدم من عمل التقويم السنوي للسنة الهجرية يصدره كل عام مطبوعاً كما شرع باعداد الإمساكية لشهر رمضان وخواص أيامها مطبوعاً إلى جانب الكتب الصغيرة التي شرع بطبعها في مطابع بغداد والنجف وبيعها بأسعار زهيدة عن حياة الأنبياء والأئمة وكتب القرعة الروحانية للخيرة عند الحيرة لمعرفة بخت الطالب لها، كما امتلأت رفوف جدران الغرفة من جهاتها الثلاثة بالعديد من الكتب النفيسة التي اشتراها من ذوي المكتبات الخاصة في بيوتهم قد حملهم الفقر إلى بيع كتبهم فاشتراها بأثمان زهيدة وكون منها مكتبته في هذه الحجرة وقد ضمت انفس الكتب التي باعها بأغلى الأثمان واثر اعتلال صحته بارت تجارته وترك غرفته وانتقل إلى منزله في الكاظمية إلى أن توفي عام ١٩٨٠، ولم يبق أثر من مكتبته التي كانت تعرف بمكتبة (المفيد) حيث اختار لها هذا الاسم، وأخليت غرفته من الصحن وجعلت مقراً للأفراد المسؤولين عن الأمن في الصحن الشريف ، وقد أخذ اسم مكتبة (المفيد)، أحد الكتبية الذين كانوا يمارسون بيع الكتب في الكاظمية ثم بارحوها إلى بيروت فافتتح هناك مكتبة ودار طباعة ونشر باسم (دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع) واضاف :-

وأذكر أن الشيخ محمود الكتبي هذا قد تولى غسل والدي العلامة الحجة السيد هبة الدين بعد وفاته في ٧ شباط عام ١٩٦٧ وأشرف على دفنه في قاعة مؤسسته (مكتبة الجوادين العامة) في الصحن الكاظمي المقدس كما كان على صلة ومعرفة تامة بعائلة رشيد عالي الكيلاني وبناته حيث كانوا يدعونه إلى بيتهم في الصليخ في عديد من المناسبات حسبما كان يذكره في أواخر الثلاثينات في القرن الماضي) .

وقد صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠١ من قبل مركز احياء التراث العلمي/ جامعة بغداد تحت عنوان مباحث في اوائل المطبوعات والمكتبات البغدادية ويقع بـ اكثر من (٣٠٠) صفحة عام ٢٠٠١ م .ثالثاً: من الاشياء الاخرى التي حدثني بها المرحوم السيد جواد في احدى المناسبات والتي لها علاقة بوالده السيد هبة الدين وعلاقته باعلام بغداد في عشرينيات القرن الماضي ، ومنهم السيد محمود شكري الالوسي عند ذكره ، فقد ذكر لي ان السيد الالوسي كان دائم الزيارة لوالده ، وفي احدى الزيارات روى السيد هبة الدين للالوسي قصة الكتاب (المخطوط) المتضمن الاسئلة والاجوبة التي كان يسألها السيد محمود شكري الالوسي لاحد المراجع الكبار المعرفين بمدينة النجف الاشرف في حينها ، وشرح له سبب اختيار اسمه من قبل احد طلبة العلم من الذين كانت لديهم اسئلة مختلفة لا يجرؤ على طرحها علناً على العلماء والمراجع الاعلام فأختار اسم الالوسي لشهرته في تلك الفترة وقد كتب هذا السائل هذه الاسئلة الى الكثير من المراجع والعلماء ، فأهملت من قبلهم عدا مرجع معروف في حينه اجابه وهذا الشيء شجع الشخص السائل في الاسترسال في الاسئلة والاستفسارات ، وفي نفس الوقت فان المرجع المجيب لم يبخل بالاجابة عن هذه الاسئلة والاسهاب فيها، وكانت الحصيلة ان كونت هذه الاسئلة والاجوبة مجموعة (مخطوطة كبير) بحجم كتاب تم تأليفه من قبل شخص بأسم السيد محمود شكري الالوسي دون ان يعلم عنه شيئاً، قال السيد جواد هبة الدين لما ذكر والدي هذه الرواية الى الالوسي واعطائه الكتاب المخطوط ذهل وتعجب ، وكان غير راض عن هذا الفعل ومستاء اشد الاستياء من هذا الشيء . اننا اذا نقوم اليوم بنشر قصة هذا الكتاب (المخطوط) المنسوب الى السيد محمود شكري الالوسي والذي لا يعلم عنه الكثير من الذين اهتموا بالالوسي وتراثه ، فأننا نؤكد ان هذه المخطوطة كما اخبرنا السيد جواد موجودة ومحفوظة اليوم في احدى مكتبات مدينة النجف الاشرف .

رحمه الله السيد هبة الدين الذي نحتفي اليوم بذكره والذي اذا احصينا مآثره الكثيرة ومواقفه المشهودة وجهوده المحمودة في سبيل النهوض بالعلوم والاداب ونشر محامد الاخلاق فأن القلم يعجز عن ايفائه حقه وهو بعد رائد في اكثر من مجال ، لعل اصداره لمجلة العلم التي تعتبر أول مجلة تصدر في بغداد ١٩١١ ، اضافة الى كونه رائدا من رواد الاصلاح في العصر الحديث بالعراق واثر تاثيرا كبيرا في محيطه وفي عصره .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ذكرى الإمام المجدد المصلح السيد هبة الدين الشهرستاني

خالد خلف داخل

احتفلت محافظة النجف الاشرف في بالذكرى السنوية الخامسة والعشرين بعد المئة لولادة الامام المصلح المجدد السيد هبة الدين الشهرستاني وحضرت هذا الاحتفال وفود علمية وثقافية وادبية من العراق وسورية ولبنان والخليج والمملكة المتحدة.

وغطت جامعة الكوفة تلك الاحتفالية الضخمة حيث غابت عنها الصحافة العراقية والقنوات الفضائية ومن هنا تستدعي المناسبة وعلى قدر ما تتسع له مداركي أن استعرض لمحات موجزة عن حياة تلك الشخصية المجاهدة فهو السيد محمد علي (هبة الدين) أبن السيد الحسين أبن السيد محسن ابن السيد مرتضى ابن السيد محمد أبن الأمير السيد محمد علي الحسيني الحائري الكاظمي ولد سنة ١٨٨٥م في مدينة سامراء فهو عالم مجتهد فاضل مجدد مصلح ومفسر عظيم وسياسي محنك ومجاهد كبير وقرأ على ابيه مبادىء العلوم ومقدماتها هاجر الى النجف الاشرف سنة ١٩٠٥ لاكمال دراسته العالية وحضر الدرس على مجتهديها العظام امثال السيد محمد كاظم اليزدي والشيخ محمد كاظم الخراساني وشيخ الشريعة الاصفهاني ثم انصرف الى التأليف والكتابة والنشر حتى اصبح من مشاهير العلماء ومن كبار الفقهاء والمجتهدين المصلحين بداية القرن الماضي ومن القادة البارزين في ثورة العشرين وكان أحد المستشارين والمقربين لمفجر الثورة الروحاني الميرزا محمد تقي الشيرازي وكان للسيد (هبة الدين) الفضل الاكبر في جمع كلمة البعض من زعماء القبائل المتنافرة وتوحيد صفوفهم وكان رحمة الله من أشهر الدعاة واكثر العلماء المجتهدين تجوالاً سافر الى بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن وأيران والهند وخلال سفرته كان داعيا للدين ونشر المعارف الاسلامية عاد بعدها الى مدينة النجف الاشرف ليكون احد المنابع الفكرية وكان يؤمن بمبدأ حق رجل الدين التدخل بالسياسة وشؤونها وفي مجال الادب والصحافة فأصدر اول مجلة علمية ودينية هي مجلة العلم سنة ١٩١٠ فكان مديرها وعبد الحسبن الازري رئيس تحريرها واستمرت بالصدور لمدة سنة لغاية ١٩١١ وشاهدتها لدى الاستاذ محمد رضا القاموسي بمكتبة دار القاموسي وقد كتب على غلافها انها مجلة شهرية علمية دينية فلسفية سياسية صناعية وكانت تطبع بمطبعة حبل المتين الهندية في النجف وكان للمجلة مكتبة عامة يؤمها الناس وقد أرخها الحجة المصلح الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء .

قائلاً: وهبة الدين الدين أتانا بعلوم مستفيضة وله التاريخ (أهدى طلب العلم فريضة ومن جهاده كان له موقف مجد في حرب الانكليز في الشعيبة حين أعلنت بريطانيا الحرب على الدولة العثمانية واعتبر العلماء اعلان الحرب على الدولة العثمانية حرباً على الاسلام فكان للسيد هبة الدين مخيم خاص به ورأيه وجماعة تحف به في جهاده سكن كربلاء بعد الاحتلال البريطاني للعراق وعند اشتعال فتيل الثورة العراقية ١٩٢٠ كان من طليعة ابطالها وله دور كبير فيها وبعد اخفاقها القي القبض عليه واودع في سجن الحلة العسكري يذكر المرحوم جعفر الخليلي في كتابه هكذا عرفتهم ج٢ فيقول اثناء تواجد السيد هبة الدين الشهرستاني في سجن الحلة داهم السجن ذات مرة احد الضباط العسكريين الانكليز لامر من الامور فسأل عن بعض الشرطة (الشبانة) الذين كانوا يعاونون الانكليز في حراسة السجن فقيل له انهم يقومون بالصلاة خلف السيد الشهرستاني داخل السجن وكان من أبرز رؤساء القبائل في سجن الحلة الشيخ عمران الحاج سعدون رئيس قبائل بني حسن وكان له كما لبعض الشيوخ المساجين مجلس في السجن وخوان يمد ظهراً ومساء وقهوة تدار على من يحضر مجلسه من المساجين السياسيين وغير السياسيين ومنذ ان دخل السيد هبة الدين السجن أمر الشيخ عمران بأن يوحد مجلسه مع مجلس السيد الشهرستاني ويجلس هو وجميع الشيوخ والمساجين تحت يد السيد بعد الافراج عنه وتأسيس الدولة العراقية أسندت اليه منصب وزارة المعارف في اول وزارة شكلتها الحكومة العراقية سنة ١٩٢١ كما أسند اليه منصب رئيس مجلس التمييز الشرعي الجعفري.

وفي عام ١٩٤٠أسس مكتبة الجوادين العامة في الصحن الكاظمي الشريف كما له مجلس في بيته بالعيواضية ببغداد منتدى يجمع بين الروحانيين من المسلمين وغيرهم من اليهود والمسيح الى جانب الوزراء ورجال العلم والسياسة والادب حتى وفاته عام ١٩٦٧ وبموته فقد مجتهد كبير ومصلح قل نظيره فتحية لمحافظة النجف الاشرف واجلالاً واكباراً لجامعة الكوفة التي استذكرت هذا الامام المصلح والمجاهد الكبير والفقية الروحاني وتحية الى كل الوفود التي شاركت في ذكراه والى الاستاذ الاديب محمد رضا القاموسي الذي حافظ على تراث الامام السيد هبة الدين الشهرستاني.

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2059)
السنة الثامنة
الخميس (3)
اذار 2011

هبة الدين الشهرستاني

لا شك ان الدوافع وراء القيام بالرحلات يختلف بين شخص واخر فمنهم من يقوم بذلك سعيا وراء المال واخرون يسعون وراء طلب العلم بيد ان هناك اشخاصا يقومون بهذه الرحلات بدوافع اخرى تتمثل بالاصلاح والدعوة وهؤلاء رغم قلة عددهم الا انهم سجلوا لنا ملاحظات اتصفت بدقتها ومصداقيتها مع ما تميزت به من امانه في الوصف والتقصي في تسجيل مشاهداتهم بمنتهى الدقة.
ومن هؤلاء السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني الذي بدأت رحلته من بغداد عام 1331هـ وصولا الى الهند في فترة هي من احرج الفترات التي مر بها العالم حيث اعطى لنا وصفا للاوضاع السياسية والاقتصادية في منطقة الخليج العربي والهند.

رحلة السيد هبة الدين الشهرستاني الى سلطنة عمان والخليج العربي

جواد كاظم البيضاني
مورخ / عراقي

هذه الدراسة المعنونة(هبة الدين الشهرستاني منهجه في الاصلاح والتجديد وكتابة التاريخ)للدكتور اسماعيل الجابري وهي رسالته في الماجستير

ان السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني في وصفه للمدن كان يهتم بالجانب الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ولم يقتصر وصفه على هذين الجانبين بل اهتم بالجانب الثقافي ايضا .
حيث سجل لنا الاوضاع العامة في منطقة الخليج وطبيعة السكان والموارد الاقتصادية وبعض القيم والعادات الاجتماعية ومن نوادر ما كتبه هي حواراته مع امير البحرين وسلطان عمان وعلاقته مع حاشية امير البحرين وسلطان عمان وشرحه لمظاهر الحياة العامة في الاهواز والكويت والبحرين وسلطنة عمان مع ما ورد في رحلته من اشارات الى بعض جزر ومدن الخليج مثل الاحساء والقطيف وقطر ودبي .

ومما تركه لنا من كنوز حواره مع سلطان عمان فيصل بن تركي والذي عرفه بـ:" سلطان عمان المفخم ادام الله سلطته واقام له مملكته جلال الملك المعظم فخر امراء العرب والعجم مثال طيب الاخلاق وحسن الشيم حضرة السيد فيصل خان" وسمى هذا الكتاب (فيصل الدلائل في اجوبة المسائل) والذي تحدث فيه عما دار بينه وبين السلطان من حوار فكري وسياسي وقد سجله لنا على النحو الآتي :-

١- دعوة المسلمين الى الاتفاق على محافظة الدين.
٢- عدد الجيش الداعين الى النصرانية.
٣- الوسيلة الى ارتقاء الامة .
٤- سبب اختلاف ايران .
٥- اصلاح الاحوال في زمان الحال .
٦- اصلاح الافكار اساس لكل اصلاح

ثم عرج على جوانب فقهية وفلسفية وعلمية .
وما جاء في الصفحة الاولى :"اما بعد فقد وفقني ربي عز شأنه اثناء رحلتي الى الهند سنة ١٣٣١هـ لزيارة حضرة السلطان المعظم الامير الكبير المفخم فخر ملوك العرب والعجم جلالة السيد العربي فيصل بن تركي سلطان عمان خلد الله ملكه وسلطانه وخذل حساده وعدوانه، فدارت فيما بيننا مذكرات علمية ومسائل دينية ما عدا المحاورات الانسية والازهاد الروحية التي اقتطفها من اخلاقه المرضية وطلعته الوطنية ولم اَرَ (والحق يقال) مثل حضرته رؤوفا برعيته محبوبا في قلوبهم جليلا في اعينهم يحب العلم والبحث عن اسراره" .
ثم يقول :"وكان دام سلطانه يتفضل على بسؤال والمذكراة او يأمر وزرائه والحاضرين الكرام بالقاء الاسئلة النافعة على هذا الفقير فلتمسني ثمة بعض الاخوة العظام ان اجمع له شطرا من هاتيك المسائل المجابة بالايات والدلائل مفصلا لبعض المجملات اخلادا لذكراه الجميل وتعجبا لنفعه الجزيل وهو يحسب من ظنه ان طلاب العلم والباحثين سوف يعلقون عليها اهمية كبرى .... ".
والحقيقة ان السيد هبة الدين سجل لنا بعض ما قاله للسلطان منها قوله :"ما دامت وطئة الفقر والجهل شديدة على هذه الامة فأنها مهددة بالفناء من دون ريبة" ثم تحدث لنا عن لطف السلطان واخلاقه .
ولم يكتف السيد بذلك بل دون لنا جوانب مهمة من الاوضاع العامة في مجمل الخليج العربي غير اننا سنتحدث عن هذه الجوانب بتسلسل

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2059)
السنة الثامنة
الخميس (3)
اذار 2011

مبتدئين بالجانب السياسي ثم الاقتصادي ثم الاجانب الاجتماعي بعد ذلك نتحدث عن الاوضاع العامة في الخليج ولكن قبل ذلك لابد لنا من التعريف بالسيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني .

فمن هو ؟ وما هي دوافعه وراء رحلته تلك ؟ وما هي ابرز مناصبه التي شغلها بالعراق ؟

نشأ السيد علي بن الحسين العابد بن محسن الصراف المعروف بهبة الدين الشهرستاني في أسرة علمية ، فوالده الحسين (ت١٢١٩هـ/ ١٩٠٢م) من علماء سامراء كان له دور في :((ان يغرس مداركه حب العلم ويذكر سجايا الصالحين)) ؛ كما ان والدته السيدة مريم (ت١٢٤٠هـ / ١٩٢٢م) كان لها أثر واضح في توجهه وميوله الفكري ، بيد ان بيئة سامراء وخلال تصدي الميرزا محمد حسن الشيرازي لقيادة الحركة العلمية فيها تركت بصماتها الواضحة على بنائه العلمي وميوله المستقبلي .

غادر السيد الى كربلاء حيث تلقى علومه الأولية فيها، ثم انتقل الى مدينة النجف الاشرف بعد وفاة والده ، ليكمل تحصيله العلمي هناك فمدينة النجف من المراكز العلمية والديني في العراق.لقد تركت حركة الإصلاح الديني التي ظهرت في العالم الإسلامي أثرا كبيرا انعكس على مسيرته المستقبلية وتوجهه الفكري يقول ذلك :((واتصلت بالحركة الجديدة . كنت أقرأ الكتب والمجلات الجديدة ، وكان لي شغف بكل جديد ... ومن هنا قرأت الفيزياء والكيمياء والرياضيات وكنت أدعو إلى الأخذ بالعلوم الحديثة وبدأ النجفيون يعارضونني لكنني استطعت ان أجتذب لي حزبا من الشباب)) . ويعرف هبة الدين دعوته تلك بالقول :((وكان(حزبنا) يدعو الى نشر العلوم الجديدة والتجديد)) .

والحقيقة فان هبة الدين بطروحاته ودعواته يميل الى الإصلاح، فهو يدعو إلى عودة الإسلام الى منابعه الأولى ونبذ الخرافات والبدع التي دخلت عليه، يقول في ذلك :((إن تلك الاخطار المبيدة لا تتبدد ولا تبيد الا بنشر العلم وتعميم التربية الدينية ومحو البدع والخرافات من صحايف طرائق المسلمين)) وركز في دعوته على التحرر من الفقر والجهل لأنه يرى ان هذاين العاملاين من اشد المخاطر على الأمة حيث يقول :((وما دامت واطئة الفقر والجهل شديدة على هذه الأمة فإنها مهددة بالفناء من دون ريبة)) .

هذه الدعوات والطروحات دفعت الشباب الى الانجذاب إليها رغم المعارضة التي واجهها من قبل كثير من النجفيين ويبدو ان دعواته الى دراسة العلوم الحديثة من فيزياء وكيمياء ورياضيات دفعت الكثير من منافسيه لألساق التهم إلية .

ووفقا لما نقلته (صابريا ميرفان) فإن اهتمامات هبة الدين الشهرستاني تبدو واضحة بالعلوم الحديثة ، محاولا تفسير بعض الظواهر الكونية بالقرآن . ويمكن ان نرى ذلك بوضوح في تعليقه على معجزات القرآن فيرى ان أسرار العلوم تتجلى على أوجه التدرج حسب تدرج الحضارة وارتفاع البشر وحسب تدرج علمه وتلون حضارته ويعتقد ان آيات القرآن الكريم (العلمية) تفسر في عصر الرسالة على قاعدة تختلف عن ما فسر في عصرنا الحاضر ويحاول تفسير ذلك من خلال بعض الأمثلة منها قوله ان :((حركة الأرض لو صرح بها الله عز وجل في عصر الرسالة كآية محكمة لرماه الناس وهو لا يتفق والحس والعقل في ذلك الزمان اما لو صرح القرآن بكون الارض على وجه محكم لكان أهل عصرنا ينتقصون علم القرآن فكان القرآن في جمود على المحكم إما خسرا لايمان أهل ذلك العصر واما خساسرا هذا العصر)).

وعلى ما يبدو فان تأثره بجمال الدين الأفغاني (ت١٨٩٧م) دفعه للاهتمام بهذه العلوم ؛على ان هذا الاهتمام وفق رواية هبة الدين كان محط معارضة من بعض النجفيين والحقيقة فان آراء جمال الدين الأفغاني يمكن ان تلاحظ في طروحاته وهو ما دفع علي الوردي للأعتقاد ان هبة الدين الشهرستاني اول المتأثرين بجمال الدين الأفغاني في العراق . وربما يرى ذلك بوضوح ، فكلاها دعا الى وحدة المسلمين وحثهم لدراسة العلوم الحديثة ، مع مناهضتهما الواضحة لبريطانية والدول الاستعمارية .... ثم تبنيهما منهج جديد في الدعوة من خلال رحلاتها ، ودعوتها الى أخراج الشوائب والبدع من الدين .

وعلى الرغم من ان هبة الدين كانت له اتصالات كبيرة وعديدة مع المصلحين وحركات الإصلاح التي ظهرت في العالم الإسلامي غير ان ذلك لا يعطي الحق في اعتبار توجهه وطروحاته وأرائه ومنهجه هو نسخة من طروحاتهم ومناهجهم وأرائهم فلهبة الدين منهجه الفكري وآراءه العلمية رغم تأثره بهؤلاء الاعلام . فهو لم يخف تشيعه بل دعا الى المذهب وبشكل واضح ،مع دعواته الواضحة الى ضرورة الإصلاح الجذري، يقول في ذلك :((ينبغي تذكير رؤساء الشيعة ومتنفذيها بإصلاح فرقة الشيعة ومحاربة عوامل الفساد الطارئة عليهم)) ويعتقد ان هذه العوامل طارئة وتمثل تهديد لمذهبهم وكيانهم .

ثم انتقد العثمانيين وهذا ما لم نره عند جمال الدين الذي يعد من المقربين من البلاط العثماني في مرحلة من حياته.

لقد عرض هبة الدين آراءه وأفكاره وطروحاته في مجلة (العلم) ،وهي اول مجلة صدرت باللغة العربية في العراق عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م وكانت المجلة تطبع في بغداد لعدم توفر مطبعة في مدينة النجف الاشرف وقد استمرت هذه المجلة بالصدور لمدة سنتين حاول خلالها جمع كلمة المسلمين وتوحيدهم وبث روح الإصلاح في نفوسهم ، كذلك قام بجولة في منطقة الخليج وإيران والهند والحجاز وسوريا ، حيث دعا الناس الى نبذ البدع والخرافات التي لا تمت للدين بأي صله ، يعتقد هبة الدين إن معالجة البدع تبدأ من خلال تصحيح سند المنقول والابتعاد عن الشواذ والإخبار الضعيفة التي تشبه (اساطير الاولين) .

استمر هبة الدين بدعواته الإصلاحية حتى وفاته فجر يوم الاثنين ٢٦ / شوال ١٣٨٦هـ الموافق ٦ / شباط / ١٩٦٧ حيث دفن في مكتبته(مكتبة الجوادين العامة) التي اسسها داخل الصحن الكاظمي الشريف .

من مكتبات بغداد التراثية
مكتبة الجوادين

حسن جواد الحاج شنجار

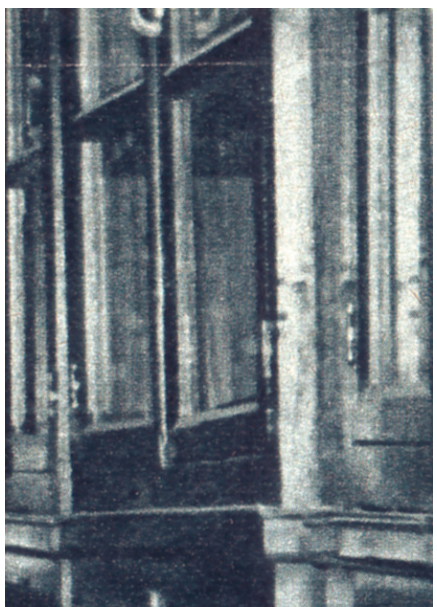

خلال جولتنا في الصحن الكاظمي الشريف يمكن ان نكتشف العديد من الروائع وهي كثيرة لعل ابرزها الجامع الصفوي وقاعة ابراهيم النقاش ومكتبة الجوادين اضافة الى ما يحتويه ضريح الامامين من نفائس وتحف.

ومما يميز معالم هذه الروضة تاريخها فلكل موقع من هذه المواقع قصة ومن هذه القصص ما يرتبط بمكتبة الجوادين.حيث بدأت حكايتها منذ عام ١٩٤٠ عندما اراد السيد هبة الدين الشهرستاني بناء مركز يجتمع به اهل العلم من ابناء مدينة الكاظمية والوافدون عليها يتناقشون ويتحاورون ويتدارسون مختلف الفنون ،ويبدو ان الغرفة الخاصة لهذا الغر في منزل السيد هبة الدين لم تعد تستوعب طلاب العلم الدارسين والمنتفعين بعلم السيد الغزير.الامر الذي دفعه للبحث عن مخرج لهذا المازق .فوجد ان الرواق الجنوبي الشرقي للصحن الشريف صالح لهذه الغاية خاصة وانه يحتوي على قاعة كبيرة من الممكن ان تكون صالحة للمحاضرات والتدريس .

ففي ١-٩-١٩٤٠تم استلام هذه القاعة بعد موافقة مديرية الاوقاف التابعة الى مجلس الوزراء،وبذلك تحولت هذه القاعة المهملة الى مكتبة تنبض في الحياة بعد ترميمها ثم قام السد بنقل مكتبته الخاصة اليها.

القاعة مربعة الشكل يبلغ طولها سبعة امتار تعلوها قبة كبيرة . في مطلع (١٩٤١) قام السيد هبة الدين بتحويل هذه المكتبة الى مكتبة عامة يعقد فيها مجالسه للتدريس صباحاً ومساءً .واستمرت المكتبة في تطورها حيث تم ضم القطعة الملاصقة للمكتبة عام(١٩٨٢)وشيد عليها قاعتين للمطالعة مع وحدات خدمات اخرى.

اما اليوم فالمكتبة تضم عددا من قاعات المطالعة منها واحدة للنساء مع وحدة انترنيت ولعل معلمها المهم هي القاعة الكبيرة والتي تقع عند المدخل الرئيس للمكتبة حيث تحتضن جدرانها ابرز الكتب ومعظمها من مقتنيات السيد هبة الدين وفي منتصف هذه القاعة قبر السيد مع نجله السيد جواد الحسيني الشهرستاني .

تضم هذه المكتبة العديد من النفائس منها الوثائق الخاصة بالسيد هبة الدين وعدد من المخطوطات الخاصة به فهناك (١٨٠) مخطوطا هي من مقتنيات السيد هبة الدين وهناك (٢٨٠)مخطوطا هي من مؤلفات السيد كذلك تضم المكتبة العديد من الوثائق عن مراسلات بين السيد وعدد من الملوك والرؤساء ،وتمثل هذه الوثائق دعوات السيد للجهاد في معركة الشعيبة ومراسلاته مع المشايخ والقادة خلال ثورة العشرين.

يبلغ عدد هذه الوثائق المهمة(٢٥٠٠) وثيقة ضمنها وثائق خاصة بحياته المهنية والتي قضاها كوزير للمعارف ثم رئيس محكمة التمييز الشرعي الجعفري وهناك وثائق ترتبط وحياته العلمية (اجازاته،وابرز شيوخه وتلاميذه..الخ).

ان لهذه المكتبة ميزات لعل ابرزها موقعها في الروضة الكاظمية وهي تضم رفات السيد هبة الدين ونجله السيد جواد هبة الدين ،والقبة التي تعتلي ضريح السيد وهناك نفائس من المخطوطات والوثائق ،علاوة على ذلك المجلس الذي يعقد في المكتبة حيث يحاضر به كبار العلماء والاكاديميون .اما الميزة الاخرى فان رواد هذه المكتبة هم من النخبة من المثقفين وعلماء ورجال فكر وطلاب دراسات عليا.

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (2059)
السنة الثامنة
الخميس (3)
اذار 2011

دور السيد هبه الدين الشهرستاني في بناء وتقويم المؤسسات التعليمة في العراق

جواد كاظم

لاشك أن جهود السيد هبة الدين الشهرستاني في بناء وتقويم المؤسسات التعليمية في العراق أمراً لا يمكن التغاضي عنه فكان له دور في بناء هيكلية وزارة المعارف من خلال اقراره اللغة العربية كلغة رسمية في التعاملمع اعتماده المناهج الحديثة في التدريس وسعيه في توحيد هذه المناهج واهتمامه بوسائل الإيضاح لاعتقاده بأنها تساهم في زيادة قدرات الطالب على فهم المادة.

ويبدو إن مساهماته لم تنحصر على هذه الجوانب وانما كان له دور كبير في زيادة إعداد المدارس لتشمل جميع ارجاء العراق بما في ذلك المناطق الريفية .

لم يترك السيد هبة الدين حقلاً من حقول التربية والتعليم إلا وكان له بصمة واضحة فيه ، فهو أول من دعا إلى ضرورة الاطلاع على آراء وأفكار المعلمين والاستفادة من مقترحاتهم في مجال تطوير نظام التعليم في العراق، وكان له دور واضح في تشكيل مجلس للمعارف يأخذ على عاتقه بناء المؤسسة التعليمية بصورة صحيحة ، وهو أول من دعا إلى تعريب النظم الإدارية في المراسلات والمخاطبات الرسمية لوزارة المعارفبل ذهب لأكثر من ذلك من خلال سعيه لتطوير العمل الكشفي(٣)بما يتلاءم وخصوصية العراق (العربية والإسلامية) .

ادرك السيد هبه الدين اهمية الاستفادة من الأمم والشعوب الأخرى والأخذ منها بما لا يتعارض وقيمنا العليا، وأن يصب ذلك بمصلحة البلد لا أن نعرضَ عنها كونها حضارة غريبة على مجتمعنا فبقدر ما نستفاد منها في حقول المعرفة يمكن إن نوليها اهتمامنا(٤) لاعتقادنا ان الحضارة هي رصيد إنساني ضخم أسهم العراقيون بقدر كبير منه ولابد إن يساهموا فيه بالمزيد من خلال الاستفادة من تجارب الأمم وتطوير هذه الفائدة خدمة للإنسانية.

وعلى الرغم من انفتاحه على حضارة الأمم واهتمامه بهذا الجانب لتطوير التعليم وتسخيره للأهداف الوطنية العليا غير أنه أدرك أن المسألة الوطنية لا يمكن أن تكون بديلاً عن العقيدة وتحل محل الدين لذلك كان موقناً إن يتعلم النشأ تعاليم دينهم لأن الدين هو الذي يحملهم بالدفاع عن وطنهم(٥).

وفق ذلك يمكن القول إن جهوده انصبت على عدة محاور أساسية لتطوير التعليم لعل أبرزها :

١- تطوير الوزارة وبناء هيكليتها وتعريب نظامها الإداري مع الاعتماد على الكوادر الوطنية في إدارتها .

٢- حصول الوزارة على ميزانية تتلائم وحاجتها ، وتوظيف هذه الميزانية لتلبية الاحتياجات الضرورية للوزارة .

٣- نشر التعليم في كل أنحاء العراق خاصة في القرى والأرياف البعيدة عن مراكز المدن.

٤- تطوير المناهج الدراسية وتوحيدها والأخذ بالاعتبار البناء الأثني للعراق ، مع رفع قدرات المدرسين والمعلمين من خلال إرساله البعثات إلى خارج البلد .

ولعل جهوده الواضحة والاستثنائية هي التي جعلت الملك فيصل يصر على ان يتولى وزارة المعارف (٢) ، فالبلاد في مراحل التأسيس ووزارة المعارف وزارة مهمة يتطلب من شاغلها أن يكون أهلاً للمسؤولية . ومهما يكن من أمر فان ما قدمه هذا الرجل من انجاز لوزارة المعارف اقل ما يوصف بانه لا نظير له .

السيد هبه الدين وتطوير النظم الإدارية في وزارة المعارف :

عندما تقلد السيد هبه الدين الشهرستاني وزارة المعارف قام بإجراء إصلاحات جذرية شملت كل مرافق هذه الوزارة ابتداء من النظم الإدارية المعمول بها، حيث دعا إلى تأسيس مجالس للمعارف في عموم الألوية العراقية ومجلس مركزي في بغداد وقام بتوحيد المخاطبات الإدارية واعتماد اللغة العربية أساساً في هذه المخاطبات ، مع استغنائه عن الموظفين البريطانيين من الاختصاصات التي لا تنسجم وعمل وزارة المعارف وفسح المجال أمام أقرانهم من العراقيين لشغل هذه المناصب.

يحاول الباحث أن يستعرض هذه الأعمال وما قام به السيد هبة الدين في هذا الحقل وعلى النحو الآتي:

١- تأسيسه مجلس للمعارف .

وجه السيد هبة الدين جهوده إلى إصلاح التعليم وسعى إلى حل مشاكله من خلال استخدام الأساليب والتقنيات الحديثة في تطبيق برامج التربية والتعليم.

غير انه كان مدركاً إن هذه المشاكل لا يمكن حلها إلا من خلال بناء مؤسسة إدارية مستندة إلى فلسفة تربوية واضحة. لذلك قام بتأسيس مجلس للمعارف في كل لواء من الألوية العشرة التي يتألف منها العراق آنذاك واسند إليه مهمة تقويم وبناء مؤسسات التعليم ، على إن يكون هذا المجلس تحت رئاسة المتصرفين ، وان ينظم عمله بقانون يسن من قبل الهيئة التشريعية العليا في البلد .

وحيث إن العراق بلد متعدد الثقافات ولمعالجه هذا التنوع الأثني اسس مجلساً للمعارف في لواء بغداد مهمته الإشراف على مجالس المعارف في المحافظات وتنسيق عملها تعزيزا للوحدة الوطنية . ولقد وافق الملك فيصل الاول على هذا المقترح الذي قدمه وزير المعارف إلى مجلس الوزراء في العاشر من شوال ١٣٤٠هـ / السادس من شهر حزيران ١٩٢٢م (٢) .

ضم هذا القرار ثماني فقرات أساسية يتم بموجبها تنظيم هيكلية المجلس ونظامه الإداري ، وهو على غرار (مجلس المعارف العثماني).

يتألف من أعضاء مجلس إدارة اللواء ، وعضو المجلس البلدي ، ومفتش المعارف ومدير المعارف في اللواء وعنصر يمثل مدراء المدارس الثانوية إذا وجد مدرسة ثانوية ويدار هذا المجلس من قبل (المتصرف)(٣).

حدد بموجب هذا القرار صلاحيات

عندما تقلد السيد هبه الدين الشهرستاني وزارة المعارف قام بإجراء إصلاحات جذرية شملت كل مرافق هذه الوزارة ابتداء من النظم الإدارية المعمول بها، حيث دعا إلى تأسيس مجالس للمعارف في عموم الألوية العراقية ومجلس مركزي في بغداد وقام بتوحيد المخاطبات الإدارية

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2059)
السنة الثامنة
الخميس (3)
اذار 2011

(المجلس) والتي تتمثل بتحديد الحاجة لذوي الاختصاصات من المدرسين والمعلمين والاستشاريين ممن يرتبط عملهم بمجال التعليم للاستفادة والاستشارة، كما يقوم المجلس بموجب هذه الصلاحيات باعتماد النظم التعليمية وإمكانية تطويرها في اللواء. وكان من بنود هذا القرار المهمة تلك التي جاءت في المادة (الخامسة) والتي تدعو إلى رفع تقرير كل ثلاثة أشهر يوضح سير التعليم في اللواء وهو أمر في غاية الأهمية لأنه يعطي تقيم لما تحقق في حقل التعليم ويترك توصيات تساهم في تصحيح الأخطاء التي ارتكبت في مراحل سابقة وإمكانية تجاوزها .

إن إدارة شؤون المعارف وتحديد حاجة الألوية إلى أبنية مدرسية وكوادر تعليمية ليس بالأمر اليسير ، لاجل ذلك اعتمد السيد هبة الدين الأسلوب الجماعي في الإدارة ، لإدراكه ان الدوله العراقية لا تزال فتية ، وإن الإدارة الجماعية هي الانجح في تقويم التعليم في مثل هذه المرحلة وعليه فقد شرع بربط هذه المجالس بمجلس مركزي يقوم بالتنسيق مع مجالس معارف الألوية يتم بموجبه تحديد حاجة البلد إلى المدارس (٢) وهو بمثابة جهاز تخطيط يشرف على وضع الخطط وتحديد الحاجة .

٢- قيامه بتوحيد المخاطبات الإدارية باللغة العربية.

على الرغم من أن الجذور التاريخية للعراق تمتد إلى عصور وأزمنة موغلة بالقدم إلا أنه اكتسب كيانه الحديث عام ١٩٢١م عندما أعلنت الحكومة العراقية فكان على مؤسسات هذه الدولة أن تنظم شؤونها من خلال بناء أجهزة إدارية وفنية ، ومن بين هذه الإدارات إدارة وزارة المعارف .

وفق ذلك عمل السيد هبه الدين على استحداث نظام إداري جديد يختلف عن الموروث العثماني ويتماشى مع العصر ولا يتعارض مع الثوابت الدينية والوطنية.

ومما قام به في هذا الشأن هو اعتماده اللغة العربية أساساً في المخاطبات الرسمية ابتداء من اللوحة التي تحمل اسم الوزارة ثم إصداره الأوامر بتعريب النقاط الدالة والتعريفية داخل الوزارة ، أو تلك التي تحمل العناوين الإدارية للموظفين حيث يقول في ذلك «العبارات المعلقة على أبواب غرف الوزارة فقد كتبت باللغة الانكليزية فطليت كتابتها بالعربية وكلف المرحوم الشاعر معروف الرصافي بان يتولى أمرها ويشرف على ترجمتها بنفسه».

وحيث إن العراق بلد عربي فمن الضروري أن تكون تلك المخاطبات الإدارية باللغة العربية لذلك أمر السيد هبة الدين انْ يعمم هذا الأمر على جميع الدوائر التابعة للوزارة في اعتمادها لغة أولى في الخطاب الإداري، وفق الأمر الوزاري الصادر من وزارة المعارف أصبح لزوما على الموظفين اعتماد اللغة العربية في كل مفردات النظم الإدارية وان تكتب الخطابات الرسمية حصرا باللغة العربية.وأمر بتغيير الأختام ، ودعا الى ترجمه الكتب الواردة سابقا وان ترفق الترجمة مع الكتاب ، مع إصداره الأوامر باستخدام الآلة الطابعة التي تستخدم الحرف العربي بدل تلك التي تستخدم الحرف الانكليزي ثم إدخال التاريخ الهجري مرفقاً بالتاريخ الميلادي (٢) .

وبذلك تصبح وزارة المعارف أول وزارة تستقدم اللغة العربية في الخطاب الإداري ضمن وزارات الدولة.

تكليف موظفين عراقيين في إدارة وزارة المعارف واستغناؤه عن خدمات الموظفين الأجانب.

عندما تولى السيد هبة الدين إدارة التعليم في العراق وضع في مستهل عمله الوسائل الكفيلة بإدارة شؤون الوزارة من قبل موظفين عراقيين. لهذا اوجب ضرورة إدخال اللغة العربية في المخاطبات الإدارية ليحد من سيطرة مستشار الوزارة الانكليزي (فاريل) وبذلك وقع أول خلاف بينه وبين المستشار .

يعتقد السيد هبة الدين أن وزارة المعارف هي مؤسسة تربوية لها خصوصياتها فهي المسؤولة عن إعداد الأجيال التي تأخذ على عاتقها إدارة مؤسسات الدولة والنهوض بالبلاد ؛ الأمر الذي يتطلب من العاملين بهذه الوزارة ترسيخ القيم العربية والإسلامية في نفوس الطلبة ،وهذا يتعارض مع نهج مستشار الوزارة جيروم فاريل jerome farrel_ ولايونيك سميث lionel smith_ (٢)

تعارضت وجهات النظر بين تطلعات الوزارة وبين المستشار دفعت وزير المعارف إلى إقصائهم متذرعا بأسباب لعل أبرزها عدم حاجة الوزارة إليهم لأنهم لا يملكون اختصاصات تميزهم عن أقرانهم العراقيين مع انتهاء عقودهم؛ يقول في ذلك :((فألغيت منها وظائف عدة كانت لأقطاب الانكليز اتخذت فرصة انتهاء مددهم أو عدم وجود حاجة ماسة إليهم ذريعة من هذه العناصر التي جاءت مع الحرب فأثرت في صيغة الوزارة وسمعتها))(٣).

والحقيقة فان السيد هبة الدين كان قد أمر بإسناد بعض الوظائف المهمة لعراقيينلاعتقاده أنهم يمتلكون مؤهلات تتيح لهم تولي مثل هذه المناصب ، ثم إن تخصصات الموظفين البريطانيين لا تتناسب وعملهم في الوزارة ، فمعظمهم ضباط في الجيش البريطاني ، وبالتالي فان عملهم يتناقض وتخصصهم (٢). والظاهر أن السيد هبة الدين لم يعارض من التعاقد مع أصحاب الاختصاصات المهمة إذا ما دعت الحاجة لذلك(٣).

ومهما يكن من أمر فإن إقصاء الموظفين البريطانيين عن مهامهم هي سابقة مسجله باسم هبة الدين فلم يسبقه احد إليها ، فالبلاد تمر بضائقة مادية وعقود هؤلاء تزيد في الأزمة وتعرقل عمل وزارة المعارف فكان قراره الحاسم والذي سجل له دون سواه من أقرانه الوزراء.

أعمال أخرى:

قام السيد هبة الدين بأعمال إدارية عديدة منها:

أ- قيامه بتقسيم مناطق (المعارف) في العراق إلى أربعة مناطق وعلى النحو الآتي(٤):

١- المركز (الوسط) وتضم (بغداد ،ديالى،الكوت،وسامراء).

٢- المنطقة الشمالية وتضم (الموصل،كركوك،السليمانية).

٣- المنطقة الجنوبية وتضم (البصرة،العمارة،المنتفك)

٤- الفراتية وتضم (كربلاء،الدليم).

استمر العمل بهذا النظام حتى عام ١٩٢٥م حيث تم استبداله بنظام آخر.

ب- قيامه بإعادة ممتلكات وزارة المعارف التي كانت تحت تصرف الإدارة البريطانية ، ومن هذه الممتلكات مدرسة (الصنايع) في بغداد كما قام باسترجاع الأموال والأملاك الموقوفة عليها.

ج- قيامه بتنظيم اجتماعات دورية بينه وبين المعلمين للاطلاع على مقترحاتهم والسماع منهم بصورة مباشرة(٢) ،حيث يتم تقويم نظم التعليم وتجاوز الأخطاء قبل استفحالها . بيد إن هذه السياسة التي وضعها السيد في سير الوزارة لم يستمر العمل بها.

دوره في تحديث المناهج الدراسية وتطويرها .

إن السيد هبة الدين الشهرستاني كان على يقين بأن سبيل الثقافة المشتركة بين العراقيين هو العامل المشترك والهدف الذي على أساسه يمكن تخليص التعليم من تبعيته لنظم التعليم الأخرى ، ويعتقد انه ليس هناك نظام تعليم قائم بذاته وإنما هو جزء من مجموعة النظم الاجتماعية التي يتكون منها الطيف العراقي ، فمن خلال التعليم يمكن إن نضمن الصلات الثقافية بين مكونات الشعب .

ولعل جهده الأول بهذا الخصوص هو دعوته إعاده النظر في المناهج الدراسية المعمول بها والتي مثلت الحقبة العثمانية، فالمناهج التي عمل بها سابقا لا تمثل حاجه البلد فهي لا تعدو عن كونها مناهج مبسطة الغرض منها تعليم القراءة والكتابة ولا تتناسب وروح العصر حيث الحاجة لدراسة العلوم التطبيقية الحديثة ، وإدخال التجارب ووسائل الإيضاح في التعليم والتي تعد جزءً مهماً للمناهج الدراسية الحديثة.

والحقيقة إن السيد هبة الدين كان مؤمناً بضرورة إدخال التجارب العلمية المختبرية واستخدام وسائل الإيضاح، لاعتقاده إن العلوم التطبيقية لا يمكن استيعابها إلا بالتجارب والأمثلة التوضيحية حيث يقول في ذلك .((إن قيمة الدروس ليست بحسن ألفاظها وعلو معانيها بل قيمة الدروس هي بما يتلقاه التلميذ ويستفيد منها .... تم التعليم من أحسن طرقه التجسيم وتوضيح الأمثلة للتفهيم بأن تجعلوا التلميذ يقرأ محسوسا ما تقرؤونه معقولا لكي يرسم العلم في خزانة فكره كما يرتسم اللون في طبقات عينه...)).

وكان قد وجه نقدا كبيرا للمناهج التي وضعت في حقبة الاحتلال فهي لا تتلاءم وتركيبة العراق السكانية وتتعارض مع خصوصيته العربية وتراثه الإسلامي(٢)؛ كما انه اعترض على طبيعة إعداد المناهج وطريقة تحديدها والتي

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (2059)
السنة الثامنة
الخميس (3)
اذار 2011

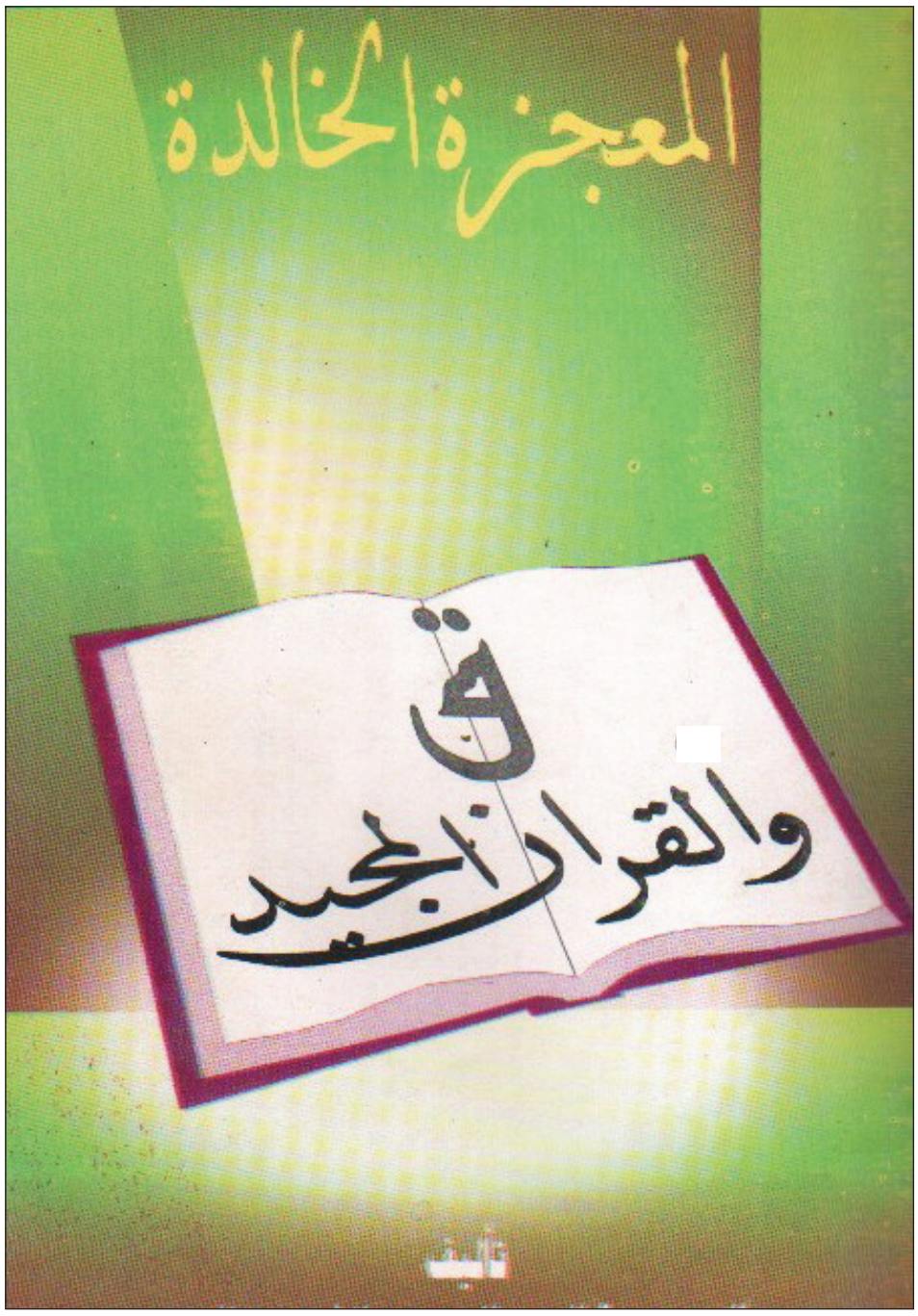

تركت بيد مدراء المدارس أو الجهة الممولة لهم(٣)،وهذا ما يتناقض مع توجهه الذي دعا فيه إلى توحيد المناهج الدراسية وان تتوافق مع التطور الذي يشهده العالم ، حيث أمر بتشكيل لجنة تأخذ على عاتقها تطوير المناهج ، وكان أمام هذه اللجنة كما يقول:((معالجة مناهج الدراسة ووضع تصاميم وأساليب وفق احدث المناهج)).

وعلى الرغم من ان اهتمامه انصب على ان تأخذ مناهج التعليم بعدا قوميا على أساس الرابطة اللغوية والانتماء الحضاري والإرث الفكري غير انه اهتم بالجانب الوطني الذي من خلاله يتم الحفاظ على موروث البلاد وقيمه وتقاليده النبيلة فمن خلال الحفاظ على هذا الموروث الوطني تحفظ وحدة البلاد لذلك تم تدريس اللغة العربية ، والقرآن الكريم مع دراسة تاريخ العراق وجغرافيته وباقي العلوم الأخرى(٢).

ولكي يتأكد من ان توزيع الحصص يتم بصورة تتلاءم وقابلية الطالب في التلقي وقدرة الأستاذ في التدريس وانه لا يتلقى نقدا من المختصين بهذا الشأن أرسل إلى مجموعة من المدراء وبعض المدرسين كل ضمن اختصاصه وأخذ آراءهم لاعتمادها في تقويم هذا المنهج لاحقا ، ثم أمر بان يرفع إليه تقرير دوري بهذا الشأن (٣).

ومما استحدثه السيد هبة الدين في تطوير المناهج إيعازه بتشكيل لجان لدراسة المنهج الخاص بالمرحلة الابتدائية حيث تم الإيعاز بتشكيل ثماني لجان وهي: (لجنة العلوم الدينية ، لجنة اللغة العربية ، لجنة التاريخ والجغرافية ، لجنة الرياضيات ، لجنة دروس الأشياء لجنة اللغة الانكليزية ، لجنة الرياضة البدنية ، وأخيرا لجنة الرسم والأعمال اليدوية) وكان الغرض الاساس من هذه اللجان هو تقويم المناهج .

وعلى ما يبدو فإن هذه المناهج لم تتعرض للتغيير الجوهري بل استمرت لفترات طويلة لم يحدث عليها أي تغيير ويقول في ذلك نعيم طرافه:»إن المناهج... كانت مبنية على أسلوب علمي دقيق بحيث بقي أساسها معمولا به حتى اليوم»(٢). وهذا دليل على الحبك والرصانة التي وضعت بها .

سعيه في نشر التعليم في كل أنحاء العراق :

لم تهتم الدولة العثمانية في تطوير التعليم الرسمي في العراق وكانت معظم الدروس في المدارس القليلة تدرس باللغة التركية ، ولم يكن هذا التعليم يلائم الحاجات الملحة للبلد . والذي زاد من صعوبة ذلك هو النقص الهائل في أعداد المدارس والمعلمين مع حاجة العراق لكوادر وطنية تساهم في بناء البلد. لذلك لم تكن مهمة السيد هبة الدين الشهرستاني بالسهلة عندما تولى منصبه كوزير للمعارف.

حيث كان عليه أنْ يضع اللبنة الأولى في مكانها الصحيح لبناء أسس وقواعد التعليم في العراق لذلك عمل على إعداد معلمين بصورة تتلاءم وحاجة البلد وفي نفس الوقت قام بتوسيع رقعت المؤسسات التعليمية وساهم أيضا في تهيئة الظروف العلمية لإعداد الكوادر المتقدمة للمساهمة في بناء مؤسسات للتعليم العالي من خلال إرسال البعثات العلمية الى خارج العراق. وعليه يمكن القول إن جهوده في هذا الحقل انصبت على النحو الآتي:

١-بناء وتوسيع الأبنية المدرسية .
٢-إعداد المعلمين والمدرسين.
٣-إرسال البعثات الدراسية للنهوض بالتعليم العالي .

١-دوره في بناء وتوسيع الأبنة المدرسية .

يعتقد السيد هبة الدين إن تطور البلد لا يتحقق إلا بترسيخ وبناء مؤسساته التعليمة ولا يتحقق ذلك إلا من خلال نشر التعليم في الأرياف والقرى النائية لان تطوير هذه المناطق يساهم في تقدم مراكز المدن حيث يعد أبناء هذه المناطق رافدها المهم .

وكان يدعو إلى ضرورة أن تأخذ كل الجهات المعنية على عاتقها إعداد أبناء الأرياف ونشر العلم بين صفوفهم وبنائهم دينيا واجتماعيا لاعتقاده ان للمؤسسة الدينية دورا مهماً في هذا الجانب (٢).

هذه الآراء التي دونها قبل ان يتولى منصبه كوزير للمعارف ترجمت على ارض الواقع بعد ان أصبح وزيراً لهذه المؤسسة المهمة حيث أمر بأن لا يقتصر بناء المدارس على مناطق دون أخرى ففتحت مدارس في الأرياف وأخرى ثانوية في الألوية خارج بغداد (٣).

والحقيقة ان العراق بدأ بعدد قليل من المدارس فكان عدد الأبنية المدرسية في بداية تأسيس الدولة العراقية وتحديدا بين سنتين ١٩٢٠ الى ١٩٢١ خمسة وثمانين مدرسة للذكور وثلاث للإناث بضمنها المدارس الأجنبية والمدارس الدينية . أما عدد المعلمين فلم يتجاوز (٤٧١) معلماً في عموم العراق وعدد المعلمات خمس عشر معلمة فقط . في حين بلغ عدد التلاميذ (٧٥٣٩) طالباً و(٤٦٢) طالبة ؛هذا هو حال التعليم في العراق وعلينا ان نتصور الفترة الوجيزة التي قضاها هذا الرجل في الوزارة واتنجازه في هذا الحقل فقد بلغ عدد المدارس بين عام ١٩٢١ إلى عام ١٩٢٢ (١٥١) مدرسة إما عدد التلاميذ فقد تجاوز (١٥٢٧٥) طالباً(

٢) بمعنى إن عدد المدارس التي أضيفت خلال هذه الفترة القصيرة بلغ سته وستون مدرسة وهو عدد كبير جدا إذا ما قورن بإمكانيات تلك المرحلة .

غير أن السيد وخلال حديثه لمجلة الأسبوع يعطي ارقاماً غير التي وردت في كتاب صرافه والمستمدة من تقارير وزارة التربية فهو يرى ان عدد المدارس بلغ ٩٦ مدرسة قبل ان يتولى منصبه وان هذا العدد ارتفع بعد ذلك حيث بلغ ٢٠٠ مدرسة أي ان المدارس التي شيدها في وزارته بلغت (١٠٤) مدرسة (٣) .

وعلى ما يبدو فإن هذا الاختلاف يعود إلى عدم وجود جهاز إحصائي دقيق يوضح بالتفصيل عدد المدارس التي بنيت في عهد السيد ، كما ان الوزارة لم تكن لها سلطة او سيطرة على المدارس الأهلية او الأجنبية ربما يكون عاملا بظهور الإحصائيات بهذه الصورة .

ومهما يكن من أمر فان عدد المدارس قد ارتفع بصورة جيدة كما ان فائدتها عمت مناطق عديدة من البلد (كالرمادي ، وبدرة ، والكوت ، والهندية ...الخ) (٤).

٢- أعداد المعلمين والمدرسين

كانت الأمية متفشية بين العراقيين لدرجة كبيرة إذ تقدر نسبة الأميين حوالي٩٠٪ بالمئه. وهذا يعني ان العراق يواجه صعوبات في توفير الفرص للحصول على مهارات وقابليات تسمح له بالتعامل مع متطلبات المجتمع الحديث. ويعني أيضا غلق الأبواب إمام أبنائه في المشاركة بشكل مؤثر ومتساوي بإدارة ألدوله لذلك لم تكن مهمة السيد هبه الدين بالمهمة السهله فتطوير التعليم لابد من إعداد كوادر علمية تأخذ على عاتقها قيادة هذه المؤسسة. ويبدو إن هذه العوامل دفعته للاهتمام بتطوير دور المعلمين في العراق ،فخلال الفترة الممتدة بين ١٩٢١إلى عام ١٩٢٢(٢)انتظمت دار المعلمين وأصبحت الدراسة فيها تسير وفق مناهج وأنظمة مستقرة نوعا ما إذ بدأ القبول على أساس ثلاث سنوات بعد الدراسة الابتدائية وسميت دار المعلمين الابتدائية يتم تعين المتخرجين منها في مدارس المدن(٣).

وعلى ما يبدو فان الدار أسست لغرض سد حاجة المدارس التي ينتظر فتحها بالمعلمين وحيث إن التحصيل الابتدائي في ذلك الوقت يعد قليلاً جدا وللإسراع في سد هذه الشواغل تم قبول خريجي الابتدائية .

كان السيد هبه الدين يقوم بجولات لدور المعلمين ويطلع على أحول الطلبة ومقترحاتهم (٤) سعيا منه لتقديم الأفضل خدمة لمسيرة التعليم في العراق .

٣-إرسال البعثات الدراسية للنهوض بالتعليم العالي

البعثات الدراسية:

اتصف التعليم في العراق مطلع العهد الملكي بأمور عدة لعل أبرزها هو النقص الحاصل في الأبنية المدرسية وفي أعداد المعلمين، وافتقاره إلى برامج محددة

على ما يبدو فإن هذه المناهج لم تتعرض للتغيير الجوهري بل استمرت لفترات طويلة لم يحدث عليها أي تغيير ويقول في ذلك نعيم طرافه:»إن المناهج... كانت مبنية على أسلوب علمي دقيق بحيث بقي أساسها معمولا به حتى اليوم» . وهذا دليل على الحبك والرصانة التي وضعت بها .

وواضحة، كذلك لم ترقَ الأساليب المستخدمة في التعليم الى المستوى المطلوب وحاجة الدولة الحديثة . في ضوء هذه الأوضاع كان لزوما على الوزارة الجديدة ان تنهض بهذا الواقع المتردي وعليها أن تهيئ الأبنية المدرسية وتعد الكوادر التي تتصدى لهذه المهمة . وفقاً ذلك قدمت وزارة المعارف مقترحا لإرسال عدد من الطلاب للدراسة خارج العراق، حيث تم تقسيمهم حسب المناطق وعلى النحو الآتي:

-بغداد ستة
-الموصل اثنان
-البصرة واحد
-كربلاء واحد

حيث تم إرسال قسم منهم إلى بريطانية وقسم آخر للالتحاق بالجامعة الأمريكية في لبنان .غير ان نعيم صراف يحدد أعداد البعثة العراقية التي أرسلت خلال وزارة السيد الشهرستاني بتسعة وإنهم أرسلوا إلى دول عربية وأوربية وعلى النحو الآتي :

-لبنان خمسه
-مصر ثلاثة
-انكلترا واحد

ويؤكد حسن العلوي ذلك لانسحاب الطالب محمد الدوشتي من البعثة وعليه يكون عدد الطلاب هو (تسعة) والحقيقة فإن هذه البعثة هي الأولى التي أرسلت إلى خارج العراق للتدريب على النظم الحديثة في التعليم (٢) .

حيث حددت حاجة البلاد في الاختصاصات وفق ما تتطلبه من نهضة زراعية وصناعية وصحية (٣) .

ثم توالت هذه البعثات ليكون مجمل ما تم إرسالهم للتدريب خارج البلد لغاية ١٩٥٣م إلف وثلاثمائة وواحد وثلاثون (٤) .

المكاسب الأخرى التي تحققت في عهده

مكافحة الأمية.

أدرك السيد هبة الدين الشهرستاني ضرورة أن ينتشر العلم في كل أنحاء العراق وأن لا يخص شريحة دون أخرى، وأنْ ينال منه الكبار او الذين حرموا من التعليم . لذلك شجع الاهتمام بمعالجة الأمية في العراق . ففي عهده تم استحداث معهد سمي بـ(المعهد العلمي) يهدف إلى تعليم الأميين ومكافحة الأمية وذلك في ٢٤ / شباط / ١٩٢٢(٥) .

بيد ان قصر فترة استلامه لهذا المنصب حالت دون تنفيذ العديد من المشاريع التربوية الطموحة غير انه وضع ركائز مهمة لتطوير التعليم في العراق .

تعليم البنات.

وفق ما ينقله السيد نعيم صرافه عن عدد المدارس الخاصة للبنات فهي لم تتجاوز الثلاث في مطلع عام ١٩٢١ وكان عدد المعلمات في هذه المدارس خمس عشرة معلمة أما عدد الطالبات فيبلغ (٤٦٢)طالبة وبعد تولي السيد هبة الدين منصبه كوزير للمعارف فان عدد المدارس الخاصة للإناث بلغ تسعه وعشرون مدرسة أما عدد المعلمات فإرتفع إلى (٩٣) معلمة وكان عدد الطالبات في هذه المدارس ثلاثة ألاف وتسعه وأربعون طالبة .

الحقيقة فإن بعض مظاهر الفساد المالي أدت دورا في الحد من نشاطات وزارة المعارف والظاهر أنه قد انتبه لذلك مبكرا حيث أوعز إلى إغلاق احد المدارس التي فتحت في إحدى البيوت دون علم أصحابه كما انه وقف بقوة بوجه (الكابتن فارل) الذي كان يرسل الأموال المخصصة للمؤسسات التعليمية في الموصل إلى الأديرة

أي إن الزيادة في عدد الطالبات بلغت أكثر من ألفين وخمسة طالبة مع ارتفاع في عدد المدارس والذي بلغ (٢٤) مدرسة.

هذه الزيادة تؤكد مدى اهتمامه بتعليم الإناث لاعتقاده الإسلامي بضرورة تعلم المرأة واحتلالها مكانتها التي يوصي بها الإسلام.

تطوير النشاط الكشفي.

يقول السيد هبة الدين في هذا المجال :((ثم وجهت العناية إلى إيجاد الروح الكشافية في هذه المدارس ، نظرا لحاجة البلاد الحياة الكشافية وضرورة إيجادها في الطلاب))(٢) .

وعلى ما يبدو فان الحقائق التاريخية لم تثبت كما هي فمعظم الذين تحدثوا عن النشاط الكشفي لم يتطرقوا إلى الدور الذي قام به السيد هبة الدين لان الفترة الممتدة بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٢ هي فترة زاخرة بهذا النشاط وإذا كان الحديث عن مواجهة السيد هبه الدين للبريطانيين في الجوانب المالية وكذلك إقصاء عدد من موظفيهم من مناصبهم في وزارة المعارف ثم دوره في اعتماد اللغة العربية لغة رسمية في المخاطبة الإدارية داخل الوزارة وتعميمها في التدريس ، فهل من المعقول أنْ يكون له دورا ثانوي في إقصاء الجنود البريطانيين الذين يقومون بتدريب ألطلبة في معسكرات النشاط الكشفي؟ .

وهل يعقل أن ينظم احتفال للكشافة في بغداد يحضره أعضاء من حكومته دون علم وزير المعارف ؟ (٢) .

هذا الخلط في الأوراق يدفعنا إلى توجيه نداء للباحثين في أن يعتمدوا المنهجية والموضوعية في كتابة التاريخ وأنْ يتخلى عن ميوله وعاطفته ليدرج الحقائق كما هي .

ميزانية المعارف.

يبدو إن الظروف الاقتصادية التي صاحبت تولي السيد هبة الدين منصبه كوزير للمعارف أدت دوراً في الحد من نشاطاته ، فقد تم إيقاف كافه المشاريع الخاصة بوزارة المعارف (٣) .كذلك تم إلغاء الخطة التي تقدم بها للتوسع في نطاق التعليم في العراق (٤) .الامر الذي دفعه للبحث عن مصادر أخرى لتموين الوزارة ، حيث توجه إلى أبناء الشعب بذلك طالباً منهم تقديم الدعم المادي والمساهمة في بناء وتطوير مؤسسات التعليم في البلد ، ويؤكد السيد هبه الدين بان مهامه في تحفيز الناس على التبرع قد نجحه يقول في ذلك :»واجتمع لدينا من تبرعات هؤلاء زهاء ربع مليون روبية بينما ميزانية المعارف كانت مليوني روبية ، فاستطعنا مضاعفة مدارس البلد».

والحقيقة فإن بعض مظاهر الفساد المالي أدت دورا في الحد من نشاطات وزارة المعارف والظاهر أنه قد انتبه لذلك مبكرا حيث أوعز إلى إغلاق احد المدارس التي فتحت في إحدى البيوت دون علم أصحابه كما انه وقف بقوة بوجه (الكابتن فارل) الذي كان يرسل الأموال المخصصة للمؤسسات التعليمية في الموصل إلى الأديرة وبتالي يحد من نشاط الوزارة في هذه المدينة وينهك ميزانية الوزارة المنهكة أصلا لان النسبة الكبيرة من الأموال كانت تذهب إلى الموصل.

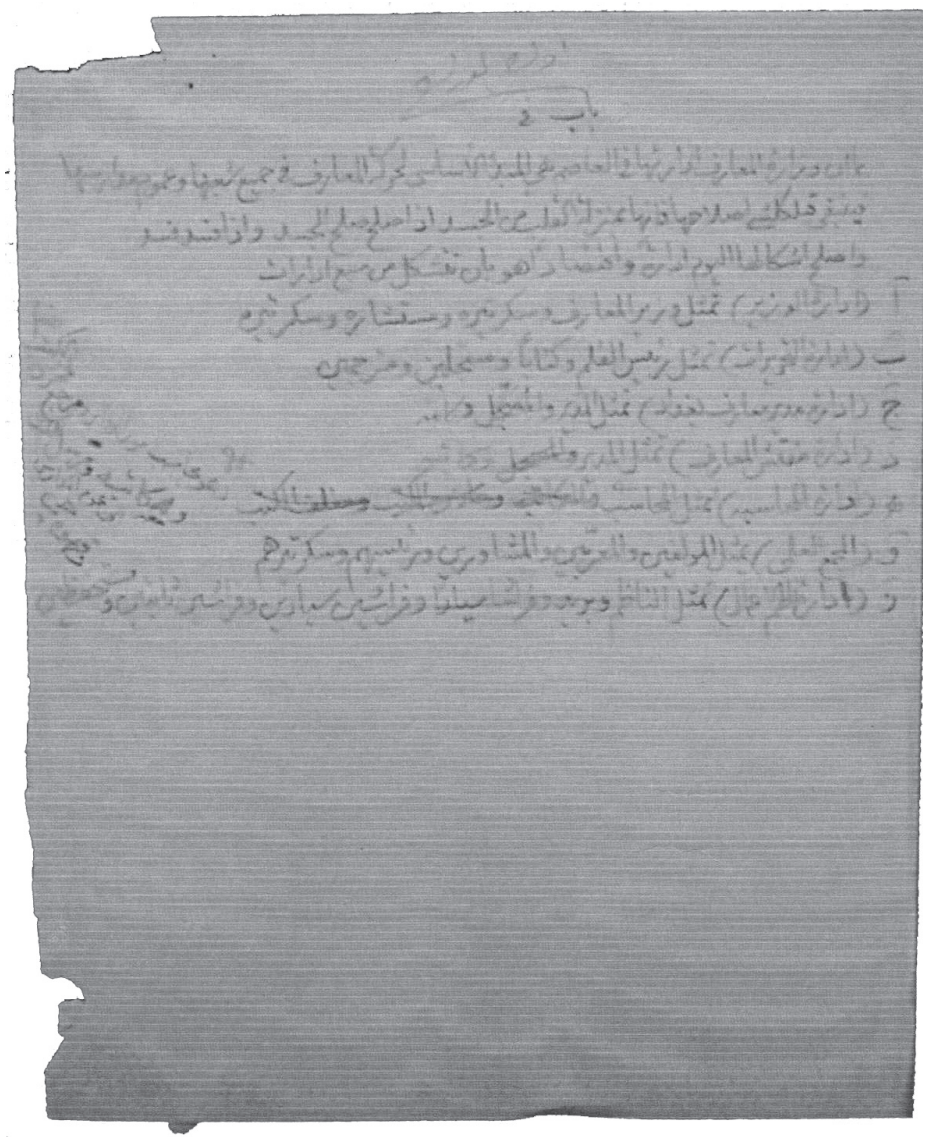

لقد عمل بكل ما استطاع من اجل أنْ ينهض التعليم في العراق، فهو لا يبخل بأمواله او راتبه للتبرع به كما انه لا يبخل براحته، وعلى الرغم من نشاطه ومثابرته إلا انه واجه صعوبات غير التي تطرق لها الباحث لعل أبرزها هو مسعى السيد ساطع الحصري في حصر التعليم الثانوي والمدارس العليا في بغداد لاعتقاده :((إن نشر المدارس الثانوية ومعاهد تدريب المدرسين في الإقليم سيشكل خطرا كبيرا على الوحدة الوطنية ... لأنه سيكون أمراً طبيعيا أن تكون الاكثريه من طلابه تلك المدارس في مدينة الموصل مثلاً من أبناء الأقلية المسيحية في حين في مدينة الحلة ستكون أكثرية الطلاب من أبناء المذهب الجعفري وهذا يؤدي حتما الى تقوية الطائفه)) . أما المشكلة الثانية التي واجهها فتتمثل بالإدارة المشتركة من قبل بعض المدارس خاصة الأهلية منها الأمر الذي دفعه للحد من هذه الظاهرة (٢) حتى تغلب على معظم هذه الصعوبات، فكان له الفضل في إرساء قاعدة التعليم في العراق وان يحقق بعض من أمنياته التي كان غالبا ما يشير إليها في كتبه ورسائله وهو أنْ يتحقق التقدم العلمي لبلده ولسائر بلاد المسلمين .

الخلاصة:

كانت سياسة السيد هبه الدين التعليمية تقوم على أساس توجيه مناهج التعليم، وأنْ يتم بناء مدارس في كل المدن العراقية دون استثناء مع استحداث مناهج التعليم بما يتلائم وروح العصر مع الحفاظ على الموروث الحضاري.

وفق ذلك عمل على ترسيخ وتطوير النظم الإدارية في هذه المؤسسة المهمة. فكان له دور فاعل في زيادة أعداد المدارس وتطوير المناهج وإخراجها من الجمود مع إدخال مناهج علمية غير معروفة من ذي قبل لدى الطالب العراقي، وكان يراعي في كل ذلك الخصوصية الوطنية والبناء الاثني المتنوع للعراق .

إن منهجية هبة الدين وتنوره ساعدته على الخروج بنتائج ايجابية في بناء قاعدة للتعليم تعد الأولى بتاريخ هذا البلد . ففي عصره ارتفع عدد الأبنية المدرسية من(٨٨) الى(١٥١)وهو الذي ساهم بتعريب النظام الإداري داخل وزارة التربية ، واليه يرجع الفضل في تأسيس مجلس المعارف وكان الرائد في إرسال أول بعثه علمية خارج العراق ،كما إن مساهماته في تطوير التعليم للمرأة واضحة المعالم حيث بلغ عدد مدارس البنات في عهده (٢٧) بعد أن كانت (٣) مدرسة ، وكان له دور كبير في زيادة ميزانية وزارة المعارف بعد إن دعا العراقيين للتبرع بالمال للوزارة نتيجة للتخصيصات المالية القليلة . لقد عمل السيد هبه الدين لهذه الوزارة بكل جد وتفان رغم فترة توزيره القصيرة جدا ..وكيف لا فهو الذي ذهب سائحا في بلاد المسلمين داعيا للإصلاح ومن دعوات الإصلاح التي أطلقها هو الاهتمام بالتعليم .

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (2059)
السنة الثامنة
الخميس (3)
اذار 2011

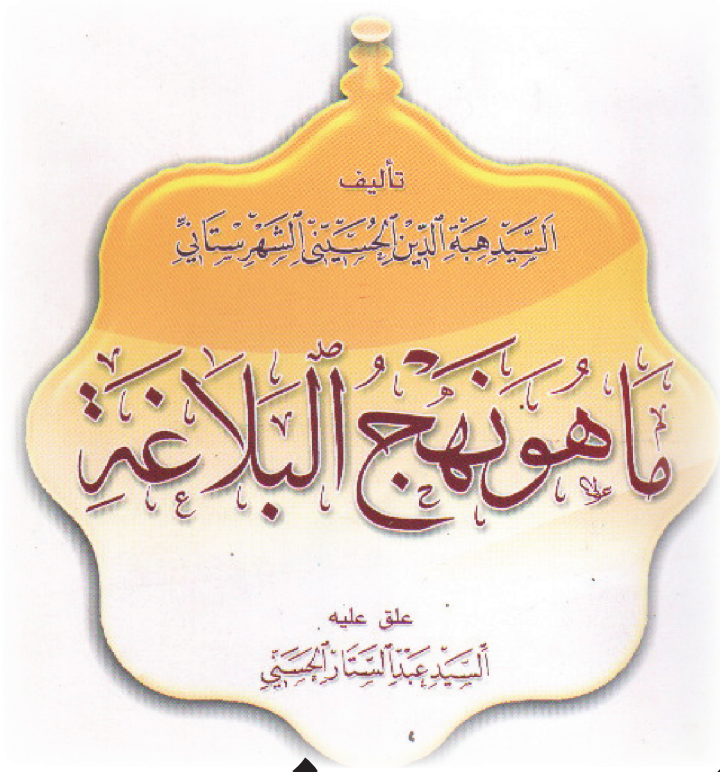

هبة الدين الشهرستاني

فقيه التنور ما أحوج العراق لأمثاله

رشيد الخيُّون

عُرف السيد هبة الدِّين محمد علي الشهرستاني، في وسط الحوزة الدينية بالنجف والكاظمية، بمحاولة الجمع بين العلم والدِّين، والسير في طريق التنوير، والتوفيق بين ما يستجد في عالم الاكتشاف والاختراع وبين الثوابت الدينية، وقد حقق ذلك عبر مجلته «العلم (١٩١٠). وبطبيعة الحال عُد هذا التوجه، في مطلع القرن العشرين، خطيراً، لا يستقبل بسهولة من دون نقد وتجريح، وخصوصاً أن المتبني هو من طلاب الدين وعلمائه فيما بعد.

ولد هبة الدين الشهرستاني بسامراء، ونشأ بكربلاء ثم النجف، التي استقر فيها ستة عشر عاماً طلباً للعلم. درس على يد زعيم المشروطية الآخوند محمد كاظم الخراساني، وعلى يد ابن عمه آية الله محمد الطباطبائي، وبتأثيرهما دخل مؤيداً وناشطاً في الحركة الدستورية. ساح لمدة عامين في العديد من البلدان: الهند، سوريا، إيران، مصر، الحجاز، ومكث في الهند لمدة عام، بداية من ١٩١٣. ويوهم لقب الشهرستاني أن هبة الدين تحدر من بلاد فارس أصلاً، مثلما يوهم لقب النجفي أو البغدادي أو العراقي بتحدُّر أفغان وهنود وباكستانيين وإيرانيين من العراق. أما هو فأخذ لقب أخواله الشهرستانيين، وقد ولد في سامراء من أسرة عربية عراقية، يتصل نسبها بزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (المقتول بالكوفة ١٢٢هـ).

كتب علي الوردي تحت عنوان «رائدان فكريان» مقارناً بين شخصيتين باعدهما المذهب والالتزام الديني وقاربهما التوجه مع اختلاف الطريقة. وهما هبة الدين الشهرستاني والشاعر المتفلسف جميل صدقي الزهاوي (ت ١٩٣٦). قال: «من أوائل الذين أولعوا بالمطبوعات المصرية، وتأثروا بها اثنان، أحدهما في بغداد والآخر بالنجف»

«نشأ كل من الزهاوي والشهرستاني نشأة دينية، إذ كانت أسرتهما من الأسر الدينية المعروفة. غير أن الشهرستاني ظل محافظاً على عمامته وزيه الديني حتى آخر يوم من حياته، بينما خلع الزهاوي عمامته في كهولته، ودخل في سلك الأفندية. وهذا الفرق الظاهري يشير إلى ما بينهما من اختلاف ذهني عميق ... والفرق بين الرجلين هو كالفرق بين النجف وبغداد من الناحية الاجتماعية، فالنجف تعد بيئة اجتماعية مغلقة بالمقارنة إلى بغداد، إذ يسودها التزمت والتقليد، ولا يأتيها الغريب إلا لكي يتأثر بها أو يذوب فيها. أما بغداد فهي على النقيض من ذلك مفتوحة يلتقي فيها الغرباء والأجانب من كل صوب، فيؤثرون فيها أكثر مما يتأثرون منها»( ).

كانت مقارنة موفقة، ولكن تفتح الزهاوي، وإن ظهر عبر قصائد ومقال أو مقالين، إلا أنه لم يكن عضواً في المؤسسة الدينية من الأساس، أما العمامة فكان يعتمرها الكثيرون، وحتى من دون دراسة دينية، وربما ينطبق على هذا معروف عبد الغني الرصافي، تلميذ كبير علماء السُنّة في بغداد محمود شكري الآلوسي (ت ١٩٢٤)، وصنف كتاباً فيه ما فيه من التحرر وتجاوز المحظور وهو «الشخصية المحمدية»، وربما أيضاً ينسحب على الجواهري وعمامته، التي ظل يعتمرها حتى الثلاثينيات من القرن المنصرم، وبعد العيش في بغداد. ثم قال فيها العام ١٩٢٩:

قال لي صاحبي الظريف وفي الكف
ارتعاش وفي اللسان انحباسة
أين غادرت عمةً واحتفاظاً
قلت إني طرحتها في الكُناسة

أُعجب جميل صدق الزهاوي كثيراً بتشالز دارون، ولا أدري هل تمكن من حل عُقد كتابه «أصل الأنواع»، أم كان ذلك من باب المفاخرة، فهو يدعي أن نظرية «النشوء والارتقاء» دخلت عقول العراقيين بسببه. قال: «المذهب القوي في رأيي هو مذهب دارون في النشوء والارتقاء، وقد تبعته، ولم يتبعه أحد غيري قبلي، وقد شاع بسببي في العراق»( ).

وكتب مقالات ضد الحجاب، ونظم أشعاراً يحث فيها على السفور، وأبرزها قصيدة «أسفري يا ابنة فهر»، وغيرها. وهذا يشترك فيه العديدون، كما أسلفنا، من الأفندية العراقيين. لكن النادرة أن يبرز عالم دين، مثل هبة الدين الشهرستاني، وفي النجف، ويؤسس مجلة تحت عنوان «العلم»، ويبحث في الفلك والهيئة، ناهيك عن انضمامه إلى المشروطية. حتى قيل أن توجه الشهرستاني العلمي حال دون توليه المرجعية الدينية.

لكن ما حصل للعراق بعد حقبة البعث، والمد الديني الموازي، لم يسلك طريق الزهاوي ولا طريق الشهرستاني، وعاد العراق، كما نرى، في العديد من جوانب الحياة الفكرية والثقافية، إلى ما قبل العشرينيات، وأصبح التشدد سيد الموقف، وقاد إلى تحارب طائفي مقيت. التشدد الذي حاربه عالم الدين هبة الدين، وأراد الزهاوي أن يخفف منه بطريقته، وإن كان انبهر بالحضارة الغربية، التي كانت آنذاك معقولة، وليس فيها ما يُخشى على تقاليدنا.

نشأ كل من الزهاوي والشهرستاني نشأة دينية، إذ كانت أسرتهما من الأسر الدينية المعروفة. غير أن الشهرستاني ظل محافظاً على عمامته وزيه الديني حتى آخر يوم من حياته، بينما خلع الزهاوي عمامته في كهولته، ودخل في سلك الأفندية. وهذا الفرق الظاهري يشير إلى ما بينهما من اختلاف ذهني عميق

فقيه من طراز آخر

أصدر الشهرستاني مجلته «العلم»، و«نحا فيها منحى إصلاحياً لم يألفه الناس من قبل، وهاجم بعض التقاليد الطارئة على أذهان المتدينين، وكل مصلح يتصدى لنشر آرائه فقد لاقى مقاومة وعنتاً شديدين»( ). وقد مدح الشيخ علي الشرقي تلك المجلة قائلاً:

آمنت فيك وحب العلم إيمان
فآية العلم إنجيل وقرآن
العلم مجد والعلياء مرشدنا

المرشدان له عقل ووجدان( )

ولشدة اهتمامه العلمي والحداثي، جاء رثاؤه من قبل الشعراء مختلفاً تماماً عن رثاء بقية علماء الدين، حيث ركزت القصائد على العلم والفكر. قال محمد حسين الصغير راثياً:

جمع القديم إلى الحديث بحكمة
قطعت ثمار نتاجها الحكماء

وبهذا الاهتمام اختص بتدريس مواد الهيأة (الفلك) والحساب في الحوزة الدينية، وهي مواد علمية تتيح التفرع بتدريسها إلى الحداثة والتقدم، والخروج بعض الشيء عن المعتاد الديني. أتضح ذلك من سيرة حياة تلامذته في تلك المواد: الشيخ كاظم كاشف الغطاء، والشيخ جعفر النقدي، وسعيد كمال الدين، وغيرهم( ).

أتصل من النجف مبكراً بصحف «القاهرة وأنديتها العلمية ومطبوعاتها، التي صارت ترد عليه بكثرة، مع فقدانها

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2059)
السنة الثامنة
الخميس (3)
اذار 2011

عند غيره. فتجمع عليه المتعطشون من أبناء العلم، الذين حُجبت عنهم. وفي هذه الآونة من أوائل حياته أنتج أول أثر قيم له هو كتاب «الهيئة والإسلام»، الذي وسع أفق الذهنية الدينية، وفتح لها أبواباً جديدة من العلم والاتصال بالفكَر الغربية، والمخترعات الحديثة آنذاك»( ).

وبهذه الخلفية استمرت مجلته «العلم» حوالي عامين. وقد ذاع صيته عبر محاضراته العلمية، التي كان يلقيها في النجف، فبعث إليه والي بغداد العثماني حسين جاويد، العام ١٩١٤ طالباً منه الحضور إلى العاصمة للمشورة. أَسرَّ إليه الوالي بأن الحرب الألمانية والإنكليزية بدأت و«لابد أنها ستشمل الممالك العثمانية، حسب ما علمت من ناظر الحربية أنور باشا. فهل ترى من تدبير لمحافظة العراق، وولاء العشائر لنا، وصد هجمات الأعداء»؟ قيل «ومن ذلك الحين بدأ يحكم الصلات بين رجال الدين وبغداد، ونظارة الحربية في الآستانة، ووحد الرأي بين علماء كربلاء والنجف (الشيرازي واليزدي)»( ).

إثر ذلك الاتصال مع الوالي العثماني، لعب الشهرستاني دوراً في إقناع المرجعية للدفاع ضد القوات الغازية، في بداية الأمر، فأخذ يظهر إلى جانب المرجع محمد كاظم اليزدي، وهو يخطب في يوم الغدير، شارحاً الخطبة على أسماع الناس. وانحدر الشهرستاني مع الفرات محرضاً العشائر الفراتية للتوجه إلى المعركة في البصرة. وكما أسلفنا، عاد خائباً، ومصنفاً رسالته «الخيبة بالشعيبة».

تبوأ بطلب من الملك فيصل الأول (ت١٩٣٣) منصب وزير المعارف، وهي حقيبة لائقة به، وحاول خلالها إبعاد المستشار البريطاني قدر الإمكان. ولأهمية لمساته في الوزارة صنف محمد عبد الحسين الكاظمي المحامي كتاباً تحت عنوان «سر تقدم المعارف» أشار فيه إلى سيرة هبة الدين، وكيف كان إصراره، من بين بقية زملائه الوزراء، على إبعاد مستشاره الإنكليزي.

إلا أنه بعد العجز عن حمل الآخرين بالأخذ بما جاء في تقريره بشأن إصلاح المعارف قدم استقالته لرئيس الوزراء عبد الرحمن النقيب(ت ١٩٢٧). وبطلب من الملك فيصل أيضاً أسندت إليه رئاسة محكمة التمييز الشيعية، أو مجلس التمييز الجعفري. تردد علي الخاقاني في سرد قصة فقد هبة الدين لبصره، قال: «لا نقوى على سردها»( ).

وبهذا، جعل القارئ يضرب أخماساً بأسداس، متشوقاً لمعرفة ما جرى لهذا العالم الجليل، هل هو اعتداء أم حادث عفوي، أو محنة مؤلمة؟ وبفقد بصره ترك الوظيفة الحكومية، وأخذ يهتم بشأن مكتبته في الكاظمية «مكتبة الجوادين العامة»، كانت نواتها مكتبته الشخصية، افتتحها في غرفة من غرف صحن مرقد الإمام موسى الكاظم( ). وأصبح نائباً في البرلمان العراقي.

كان هبة الدين جريئاً في ما يكتب ويقول، مقاوماً التقليد في أمور من الصعب تناولها آنذاك، وحتى بعد حين. فمن جرأته أنه أصر على فصل المستشار البريطاني لوزارة المعارف، وحينها خلق ضجة في الوسط السياسي. ونشر رسالته في «تحريم نقل الجنائز»، وكانت مشكلة كبيرة، بين الصفويين والعثمانيين، وملخصها: أن الشيعة

ما فعله الشهرستاني، بعد الانتقال إلى الكاظمية غربي بغداد، عين ما فعله الأمين بدمشق، لقد «قلب سيرة الكاظمية في اليوم العاشر من المحرم من ضرب القامة إلى إقامة حفل عظيم تتلى فيه أسرار نهضة الحسين من قِبل أعلام الكتاب والشعراء، وثابر على ذلك سبعة أعوام، كانت نتائجها تملأ المجلات

أخذوا من زمن بعيد يدفنون موتاهم في مقبرة وادي السلام بالنجف، وتعد من كبريات المقابر بالعالم، وما يصاحب نقل الجنائز من مضايقات وأضرار صحية. فيروى أن والي بغداد مدحت باشا استغل فرصة وجود الشاه ناصر الدين القاجاري لزيارة العتبات المقدسة بالعراق، ففاتحه بأمر نقل الجنائز من إيران إلى النجف «فلزم أن يُدفن الميت في موطن موته، ويبقى مدة سنة، وبعد مرور السنة تنقل عظامه ورممه، فيحصل الغرض»( ).

التجديد في عاشوراء

سار هبة الدِّين الشَّهرستاني على طريق المصلح المجتهد السيد محسن الأمين (ت ١٩٥٢) في محاولة تنقية مراسم عاشوراء من الفوضى، فإذا كان العلماء المصلحون تلمسوا الحاجة إلى إصلاح العزاء الحسيني، قبل أكثر من مائة عام، وإخوان الصفا قبل أكثر من ألف عام، فكم ستكون الحاجة مضاعفة وضرورية وها هي البشرية تعيش الألفية الثالثة، وعصر تأهيل السياحة إلى الفضاء!

فما علمناه أن المرجع أبا الحسن الأصفهاني (ت ١٩٤٦) قد حرم الاستماع لخطيب تلاعب بعقول النَّاس عبر مأساة الحسين، وهو الخطيب صالح الحلي، فماذا عساه يفعل، لو كان حياً، بخطباء اليوم وهم يستنزفون العقول من على شاشات الفضائيات! أحدهم تلاعب بعواطف المحتشدين، بالشعر والرواية وحركات الجسد، يُتبع بالصلوات وهو يدس خرافته من على المنبر: أن خمس خشبات، من سفينة نُوح، كُتب عليها أسماء أهل الكساء، ولما غُرز المسمار في خشبة الحسين نَفطَ منها الدم! أما الآخر فنسمع منه عبر الشاشة العجائب والغرائب، مثل حديث الأحجار المؤمنة والكافرة!

ألا يتقدم مصلح جريء ويؤسس مأتماً مخالفاً للمآتم التي تسكب عبرها الترهات في أدمغة الشباب والأطفال، يجاري فيه ما أقامه السيد الشهرستاني. ولا يغرنكم اللقب فالرجل يتحدر من كربلاء وولد بسامراء، ولقبه المرادف الحسيني، إلا أن الخؤولة غلبت عليه فاشتهر بالشهرستاني. كان يمكن لهذا الرَّجل أن يتبوأ المرجعية الدينية، لكن للمرجعية شروطاً منها عدم إثارة المُقلدين، أو العوام، وكانت دعوة «تحريم نقل الجنائز» وإصدار كتاب بهذا العنوان، والاهتمام بعلم الهيئة أو الفلك والرياضيات، ومحاولات تفنيد ما علق في العقول من خرافات، لا تسمح لروحاني مثله أن يكون مرجعاً(الخاقاني، شعراء الغري).

فما فعله الشهرستاني، بعد الانتقال إلى الكاظمية غربي بغداد، عين ما فعله الأمين بدمشق، لقد «قلب سيرة الكاظمية في اليوم العاشر من المحرم من ضرب القامة إلى إقامة حفل عظيم تتلى فيه أسرار نهضة الحسين من قِبل أعلام الكتاب والشعراء، وثابر على ذلك سبعة أعوام، كانت نتائجها تملأ المجلات والصحف، وتُوجد الكتب القيمة في الموضوع نفسه. ومن نتائجها الأعداد الخاصة بذكرى الحسين لمجلتي البيان. كل ذلك كان يسعى إليه ليقلب صفحة التفكير، ويوقف النَّاس على فهم الدين الصحيح، وما يريده الأئمة (ع) من سعادة للنَّاس»(شعراء الغري).

لكن، لكل نهضة وحركة إصلاح أعداء، يذودون عن مصالحهم الخاصة وتجاراتهم، وإن كانت على حساب التقدم والتمدن، والالتحاق بالركب العالمي، وهذا ما لا يروق للمغرضين، فتكاثروا وحشدوا حولهم الجموع «لإرجاع العوام إلى حضيرة الجهل والفناء وتغلبوا»(نفسه) أخيراً اضطر صاحب الدعوة اللجوء إلى بيته بعد يأسه من وجود مرجع مثل السيد أبي الحسن، يدعم الإصلاح. لجأ إلى بيته بعد أن قضى سنوات داعماً لإصلاح العزاء والنهي عن التطبير والتسوط بالسلاسل واللطم، وكل المشاهد المؤذية، التي لا تترك سوى الحماسة للثأر، تلك التي كشف خطورتها إخوان الصفا وخلان الوفا من قبل ألف عام ويزيد (العاشر الميلادي).

لقد انتقد إخوان الصفا الجماعات نفسها التي انتقدها وتصدى ضد تجهيلها الروحانيان الأمين والشهرستاني، والإخوان والعالمان كانوا من الشيعة لا من خارجهم، قالوا: «ومن النَّاس طائفة قد جعلت التشيع مكسباً لها منل النَّاحة والقصاص (سرد قصة الحسين بما يؤثر يهيج العواطف) لا يعرفون من التشيع إلا التبري والشتم والطعن واللَّعنة والبكاء مع النَّاحة»(الرسالة السابعة، كيفية الدعوة إلى الله).

قال إخوان الصفا هذا وليس في زمنهم ممارسات زمننا، وكذلك ليس في زمنهم فضائيات وانترنيت وطائرات تسبق سرعتها سرعة الصوت! وهم قالوا في شأن البكاء على السيد المسيح ويرمون إلى البكاء على الإمام الحسين: «اعلم أن هذا الرأي والاعتقاد يكسب صاحبه غيظاً على القائل وحنقاً، وعلى المقتول حزناً وغماً، ثم تبقى طول عمره موتئلمة نفسه معذباً قلبه مشتهياً الانتقام»(العلوم النَّاموسية، الرسالة الأولى).

لقد وصل الأمر بعراقنا إلى إخراج أطفال مدرسة ابتدائية يتوشحون السواد ويجلدون ظهورهم بالزناجيل.

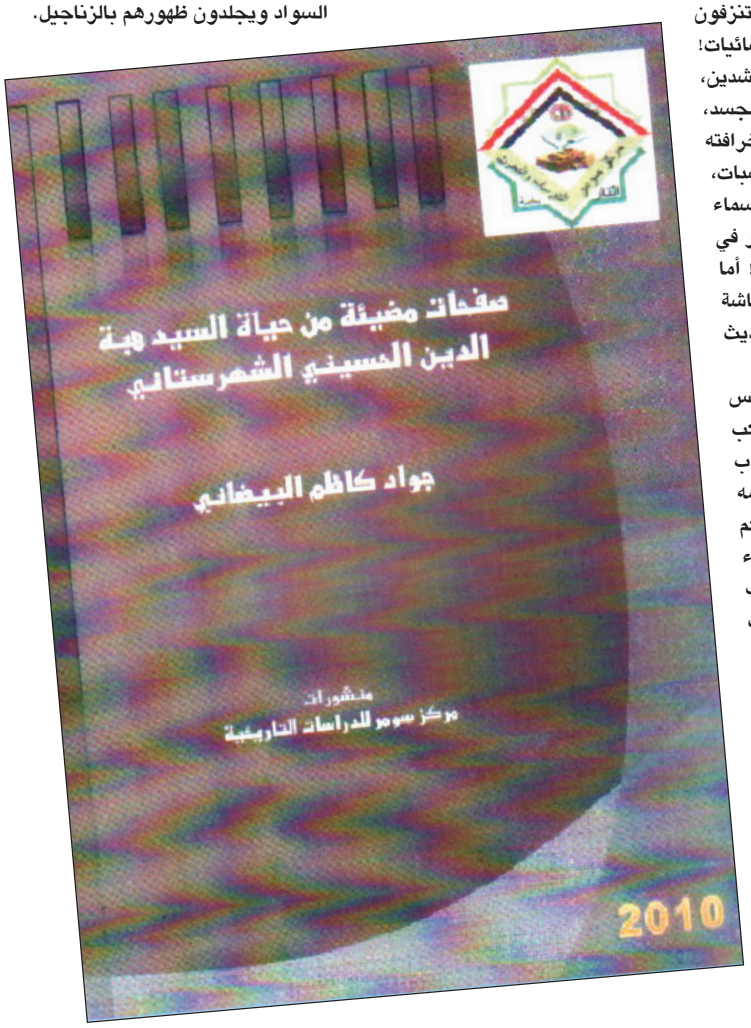

نعم، يحدث هذا عندما يتربع على سدة وزارة التربية قارئ مقدمة العزاء قبل تحمل المسؤولية(راجع مقالتا أية تربية وأي تعليم)! وأريد لوزراة الثقافة إقامة العزاء، لا حباً بالحسين، لكنها مما في نفس يعقوب!

أقول: كم صاحب عمامة تولى أمر المعارف، وزارات أُخر، من قبل، لكنهم لم يسعوا إلى المتاجرة بعاشوراء عبرها، بل إن عمامة تولت رئاسة الوزراء(محمد الصدر) ولم تسخر الدوائر وتخرجها من إطار الدولة المدنية! إنَّ ما يجمع بين رأي إخوان الصفا وإصلاح الأمين والشهرستاني، ثم مراجعة آية الله مطهري في كتابه الثري «الملحمة الحسينية»، هو: ألا «تظهر الشيعة كأنهم يعيشون في الوهم ...»(الأمين، ثورة التنزيه)!

فمن دعوة الشَّهرستاني الإصلاحية تحريم الضرب بالقامة في عاشوراء «ونبذ العادات الوحشية من ضرب السلاسل (الزنجيل)»( ). ومن محاولاته للتغيير في طقوس عاشوراء إشغال العامة عن التطبير بالقامة والتسوط بالسلاسل برعاية «حفل عظيم تتلى فيه أسرار نهضة الحسين من قِبل أعلام الكُتاب والشعراء، وثابر على ذلك سبعة أعوام. كانت نتائجها تملأ المجلات والصحف، وتوجد الكتب القيمة في الموضوع نفسه». كل ذلك سعياً منه لقلب صفحة التفكير السائدة.

توفي عالم الدين المثقف هبة الدين الشهرستاني عن عمر ناهز الثالثة والثمانين (١٨٨٤-١٩٦٧)، قضى وطراً منها بصيراً، حتى اشتهر بعمامته السوداء ونظارته السوداء أيضاً. تاركاً إضافة إلى المكتبة العامة والآراء العلمية والمواقف الجريئة، تركة معرفية تربو على خمسة وعشرين كتاباً مطبوعاً، وعلى أكثر من مئة وثلاثين رسالة وكتاباً مخطوطاً، بالعربية والفارسية، ومنها: «منظومة مواهب المشاهد في أصول العقائد»، «رواشح الفيوض»، «الهيئة والإسلام»، «التوفيق بين الاكتشافات الجديدة وقواعد الفلكيات»، «توحيد أهل التوحيد»، «صلاة الجمعة خلف إمام عادل»، «حوادث الدهور من أيام الشهور»، «الرجعية» «العزاء الحسيني»، «قاموس الفلسفة»، «كهرباء القلوب»، «مشكلات العلوم»، «المعارف العلمية للمدارس الراقية»، وغيرها.

يضاف إلى هذه التركة الغزيرة كماً المميزة نوعاً، مقالات كتبها في مجلة «العرفان» الصيداوية، ومجلات أخرى، لها قيمتها في التقريب بين العلم والدين، فهو على حد عبارة علي الوردي كان «يتمسك بالدين، ويريد من العلوم الحديثة أن تلحق به، وتواكبه وتتفق معه».

ولهذا رأيناه في جميع كتبه ومقالاته يحاول أن يبرهن للقراء أن الدين الإسلامي قد سبق العلوم الحديثة بنظرياته، وأن تلك العلوم لم تأت بما يناقض الإسلام أبداً. أما إذا ظهر بينهما شيء من التناقض فمرد ذلك إلى سوء الفهم وقلة الإطلاع»( ). ومن شعره في السلام العالمي والحب الإنساني:

وطني الأرض وقومي البشر
أينما كانوا ومَنْ ظهروا
نحن في النوع جميعاً واحد
شكلنا يجمعنا والصور ( )

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (2059)
السنة الثامنة
الخميس (3)
اذار 2011

رحلة السيد هبة الدين الشهرستاني الى الهند في مخطوطة البندريات

اسمه وانتسابه:

هو محمد علي بن الحسين العابد بن محسن الصراف بن المرتضى بن محمد ينتهي نسبة الى الحسين ذي الدمعة بن زيد الشهيد بن الإمام زين العابدين بن الحسين السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. يلقب (بالحسيني) ويعرف بـ(هبة الدين) وينتسب الى شهرستان ، فقد غلب أنتسابه الى شهرستان على لقبه بـ(الحسيني).

ووفقا لما يقوله إسماعيل الجابري فإنَّ لقبه (الشهرستاني) إنما أنيط به لان هذه الأسرة سكنت مدينة شهرستان:" فحملوا اسمها جرياً على عادة العرب في التميز بين فرع وآخر ....." ويذكرمحمد مهدي العلوي إنَّ اللقب جاء لهذه الأسرة عن طريق (الأمّهات) ، وهذا ما ذهب إليه محمد باقر البهادلي معتمدين في ذلك على ما ذكره السيد في مخطوطته (صدف اللآلي وذرى المعالي)والذي ذكر فيه اسباب اناطة هذا اللقب باسرته وانه انما جاء :" من الأمهات إلى الأسرة (الشهرستانية) العريقة في(كربلاء والفرات الأوسط) خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة وهي موسوية النسب ، ينتهي نسبها الى الإمام موسى الكاظم (ع)..." ثم يقول : "بينما نسبه لأبيه ينتهي الى زيد الشهيد بن الإمام زين العابدين بن الإمام الحسين (ع) " .

وفي هامش المخطوطة يقول السيد جواد بن هبة الدين :"والأسرة الشهرستانية هذه الموسوية منها والحسينية – كلتاهما من أصول هاشمية النسب ومن صلب جدهم الأعلى (عبد المطلب بن هاشم) جد النبي محمد (ص) وقد هاجر أجدادهما من الجزيرة الى مختلف بقاع الأرض من اجل الحياة والنجاة من بطش المطاردين الطغاة وجاءتهم هذه الألقاب والنسب من باب المجاز بينما هم – بلا ريب – قرشيون ومن قلب الحجاز".

نشأته ودعواته للإصلاح :

نشأ السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني في أسرة علمية ، فوالده الحسين (ت١٢١٩هـ/ ١٩٠٢م) من علماء سامراء كان له دور في :"ان يغرس مداركه حب العلم ويذكر سجايا الصالحين" ؛ كما ان والدته السيدة مريم (ت١٢٤٠هـ / ١٩٢٢م) كان لها أثر واضح في توجهه وميوله الفكري ، بيد ان بيئة سامراء وخلال تصدي الميرزا محمد حسن الشيرازي لقيادة الحركة العلمية فيها تركت بصماتها الواضحة على بنائه العلمي وميوله المستقبلي .

غادر السيد الى كربلاء حيث تلقى علومه الأولية فيها، ثم انتقل الى مدينة النجف الاشرف بعد وفاة والده ، ليكمل تحصيله العلمي هناك فمدينة النجف من المراكز العلمية والدينية في العراق. لقد تركت حركة الإصلاح الديني التي ظهرت في العالم الإسلامي أثرا كبيرا انعكس على مسيرته المستقبلية وتوجهه الفكري يقول في ذلك :"واتصلتُ بالحركة الجديدة . كنت أقرأ الكتب والمجلات الجديدة ، وكان لي شغف بكل جديد ... ومن هنا قرأت الفيزياء والكيمياء والرياضيات وكنت أدعو إلى الأخذ بالعلوم الحديثة وبدأ النجفيون يعارضونني لكنني استطعت ان أجتذب لي حزبا من الشباب" . ويعرف هبة الدين دعوته تلك بالقول :"وكان(حزبنا) يدعو الى نشر العلوم الجديدة والتجديد" .

والحقيقة فإنَّ هبة الدين بطروحاته ودعواته يميل الى الإصلاح، فهو يدعو إلى عودة الإسلام الى منابعه الأولى ونبذ الخرافات والبدع التي دخلت عليه، يقول في ذلك:" إن تلك الإخطار المبيدة لا تتبدد ولا تبيد الا بنشر العلم وتعميم التربية الدينية ومحو البدع والخرافات من صحايف طرائق المسلمين" وركز في دعوته على التحرر من الفقر والجهل لأنه يرى ان هذين العاملين من اشد المخاطر على الأمة حيث يقول:"وما دامت واطئة الفقر والجهل شديدة على هذه الأمة فإنها مهددة بالفناء من دون ريبة" .

هذه الدعوات والطروحات دفعت الشباب الى الانجذاب إليه .ووفقا لما نقلته (صابريا ميرفان) فإن اهتمامات السيد هبة الدين الشهرستاني تبدو واضحة بالعلوم الحديثة ، محاولا تفسير بعض الظواهر الكونية بالقرآن . ويمكن ان نرى ذلك بوضوح في تعليقه على معجزات القرآن فيرى ان أسرار العلوم تتجلى على أوجه التدرج حسب تدرج الحضارة وارتفاع البشر وحسب تدرج علمه وتلوُّن حضارته ويعتقد ان آيات القرآن الكريم (العلمية) تفسر في عصر الرسالة على قاعدة تختلف عن ما فسر في عصرنا الحاضر ويحاول تفسير ذلك من خلال بعض الأمثلة منها قوله ان :"حركة الأرض لو صرح بها الله عز وجل في عصر الرسالة كآية محكمة لرماه الناس وهو لا يتفق والحس والعقل في ذلك الزمان اما لو صرح القرآن بكون الارض على وجه محكم لكان أهل عصرنا ينتقصون علم القرآن فكان القرآن في جمود على المحكم إما خسارا لايمان أهل ذلك العصر واما خساسرا هذا العصر".

وعلى ما يبدو فإنَّ تأثره بآراء جمال الدين الأفغاني (ت١٨٩٧م) دفعه للاهتمام بهذه العلوم على ان هذا الاهتمام وفق رواية هبة الدين كان محط معارضة من بعض النجفيين والحقيقة فان آراء جمال الدين الأفغاني يمكن ان تلاحظ في طروحاته وهو ما دفع علي الوردي للاعتقاد ان السيد هبة الدين الشهرستاني اول المتأثرين بجمال الدين الأفغاني في العراق . وربما يرى ذلك بوضوح ، فكلاها دعا الى

وحدة المسلمين وحثهم لدراسة العلوم الحديثة ، مع مناهضتها الواضحة لبريطانية والدول الاستعمارية .... ثم تبنيها منهج جديد في الدعوة من خلال رحلاتها ، ودعوتها الى أخراج الشوائب والبدع من الدين .

وعلى الرغم من ان هبة الدين كانت له اتصالات كبيرة وعديدة مع المصلحين وحركات الإصلاح التي ظهرت في العالم الإسلامي غير ان ذلك لا يعطي الحق في اعتبار توجهه وطروحاته وآرائه ومنهجه هو نسخة من طروحاتهم ومناهجهم وأرائهم فلهبة الدين منهجه الفكري وآراءه العلمية رغم تأثره بهؤلاء الاعلام . فهو لم يخف تشيعه بل دعا الى المذهب وبشكل واضح ،مع دعواته الواضحة الى ضرورة الإصلاح الجذري .

لقد عرض هبة الدين آراءه وأفكاره وطروحاته في مجلة (العلم) ، وهي اول مجلة صدرت باللغة العربية في العراق عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م وكانت المجلة تطبع في بغداد لعدم توفر مطبعة في مدينة النجف الاشرف وقد استمرت هذه المجلة بالصدور لمدة سنتين حاول خلالها جمع كلمة المسلمين وتوحيدهم وبث روح الإصلاح في نفوسهم ، كذلك قام بجولة في منطقة الخليج وإيران والهند والحجاز وسوريا ، حيث دعا الناس الى نبذ البدع والخرافات التي لا تمت للدين بأي صلة، يعتقد هبة الدين إن معالجة البدع تبدأ من خلال تصحيح سند المنقول والابتعاد عن الشواذ والأخبار الضعيفة التي تشبه (اساطير الاولين) .

لقد عرض هبة الدين آراءه وأفكاره وطروحاته في مجلة (العلم) ، وهي اول مجلة صدرت باللغة العربية في العراق عام 1327هـ / 1909م وكانت المجلة تطبع في بغداد لعدم توفر مطبعة في مدينة النجف الاشرف وقد استمرت هذه المجلة بالصدور لمدة سنتين حاول خلالها جمع كلمة المسلمين وتوحيدهم

محطات في حياة السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني:

عاش السيد هبة الدين حياة مفعمة بالنشاط الفكري والعلمي الواسع الذي لا يمكن تغطيته بهذه الصفحات لذلك وجد الباحث انه من الضروري ادراج اهم المحطات في حياة على شكل نقاط لعل ابرزها.

× في عام (١٣٢٧هـ ١٩٠٩م) طبع كتابه القيم (الهيئة والإسلام) عن الأفلاك السماوية وفق الشريعة المحمدية وعن أهم المكتشفات الحديثة التي كان الشرع الحنيف قد سبق الإشارة إليها من قبل وذكروها في أحاديثهم فبرهن على تقدم المسلمين في مجال الهيئة والأفلاك، وقد اشتهر هذا الكتاب شهرة كبيرة فطبع عدة طبعات وبلغات مختلفة ..

× في عام (١٣٢٨هـ١٩١٠م) أصدر في النجف الأشرف مجلته العلمية (العلم) واستمرت لغاية (١٣٣٠هـــ١٩١٢م) نشرت قسماً من أفكاره العلمية وآرائه في كثير من العلوم الشرعية والعرفية، وكان لها دوراً كبيراً وصدى واسعاً في الأوساط العلمية والثقافية لما تحويه من العلوم والمعلومات الرصينة ..

× في عام (١٣٣٣هـ ١٩١٥م) عهد إليه قيادة هيئة علماء الدين لدعم المجاهدين المتطوعين لنصرة الجيش العثماني في معركتي (الكوت) و(القرنة)، وكانت لخطبه المشجعة تأثيرها في نفوس المجاهدين ..

× في عام (١٣٣٤هـ ١٩١٦م) عهد إليه قيادة ركب العلماء والمجاهدين من العشائر الفراتية لنصرة العثمانيين في معركة (الشعيبة) قرب البصرة ضد قوات الإنكليز الزاحفة عليها ....

× في (٢٧ محـــرم ١٣٣٩هـــ ١٠/١٠/١٩٢٠م) اعتقلته السلطة البريطانية المحتلة وحكمت محكمتها العرفية العسكرية المنعقدة في الهندية والحلة عليه وعلى بعض من كان معه بالإعدام شنقاً وبتهم ملفقة وبشهود زور ، وكان اسمه فيً مقدمة المحكومين وسجن مع رفاقه في سجن الحلة لغاية (١٩٢١/٥/٣١م)، حيث يصف السيد قصة تلك الأيام في السجن فيقول:"لقد قضينا تسعة أشهر في الحبس وفي غرفة المصلبة (المشنقة) وعندما صدر الحكم علينا بالإعدام تغيرت ألوان رفاقي، كانوا في هَمٍّ عظيم، أما أنا فلم أهتم لذلك فأخذت عباءتي وصعدت سُلّم المشنقة وجلست على فسحة صغيرة ينتهي عندها السلم تحت المشنقة مباشرة، ولكنهم نادوا علي بأنْ أنزل لأشرب الشاي، فقلت لهم ابعثوا لي بالشاي هنا، فعجبوا مني ولكنني بهذه الكلمة كنت بعثتُ في نفوسهم شيئاً من الاستهانة، فما لبثوا أنْ صعدوا جميعاً السلم وجلسوا معي يشربون الشاي تحت المصلبة، لقد قلت لهم: لماذا أصفرت وجوهكم ؟ إننا شهداء. فما لبثت نفوسهم أن أطمأنت حتى صارت المصلبة ملعبةً" ..

× في (٢٣ رمضان ١٣٣٩هـ ١٩٢١/٥/٣٠م) أطلق سراحه مع رفاقه بالعفو العام، وفي (١٩٢١/٦/١م) عاد إلى كربلاء معززاً وباحتفاء بالغ من قبل أعلامها وأهاليها فيصف ذلك بقوله:"عندما خرجنا من الحلة إلى كربلاء عن طريق المسيب فوصلنا إلى كربلاء بعد ظهر السبت ٢٧ رمضان حيث استقبلنا جموع أهاليها في صفوف عبر الطريق مُرَحِّبين بعودتنا سالمين، ورغم حر الظهيرة وصيام الناس كانت جموعهم غفيرة مُعَبِّرين عن شعورهم الطيب نحونا))، وبعدها واصل تدريسه لطلبته من فضلائها الأجلاء في حجرته بالروضة الحسينية..

× في (٢٥ محـــرم ١٣٤٠هـــ ٢٨/ ٩/ ١٩٢١م) اختاره الملك فيصل الأول إثر تتويجه ملكاً على العراق لتولي وزارة المعارف في الوزارة النقيبية كأول وزير من العلماء المبرزين، وقد أجرى في وزارته إصلاحات قيمة ..

× في (٢١ ذو الحجة ١٣٤٠هـــ ١٩٢٢/٨/١٤م) قدَّم استقالته من الوزارة لعدم ارتياحه إلى أسلوب العمل مع الجهاز العامل في الوزارة واعتزل العمل السياسي معهم ..

× في ايار (١٣٤٣هـ ١٩٢٥م) فَقَدَ بصرَهُ نهائياً إثر (رمد صديدي) عمَّ الشرق الأوسط وبتدبير من سكرتيرة دار المندوب السامي (مس بيل) وجماعتها من الأطباء الإنكليز في المستشفى أفقدوه بصره للحدِّ من نشاطه المناهض لهم ..

× في كانون الأول (١٣٤٤هـ ١٩٢٥م) وأثناء رئاسته لمجلس التمييز المتقدم ذكره أصدر مجلة (المرشد) العلمية في بغداد وبمسؤولية ابن خالته السيد محمد الحسيني وبإدارة حفيد خاله السيد صالح إبراهيم الشهرستاني وهو يملي عليهم آراءه العلمية ومباحثه القيمة، واستمرت المجلة تحت إشرافه العلمي طافحة بنتاجه الفكري لأربعة أعوام حتى مطلع العام (١٣٤٩هـ١٩٣٠م) .

× في (٢٨ ربيع الآخر ١٣٥٠هـ ١١ أيلول ١٩٣١م) منحه الملك فيصل الأول وسام الرافدين من الدرجة الخامسة من النوع المدني تقديراً لخدماته النافعة وجهوده المفيدة ..

× في (١٩ رمضان ١٣٥٣هـ ٢٥ كانون الأول ١٩٣٤م) اختير لعضوية مجلس النواب نائباً عن لواء بغداد ..

× في (١٦ رجب ١٣٥٧هـــ ١١ أيلول ١٩٣٨م) اختارته وزارة المعارف لإلقاء المحاضرات الدينية في دار المعلمين الابتدائية والريفية لتدريب مدرسي الدين ورفع مستواهم العلمي والديني..

شيوخ إجازاته:

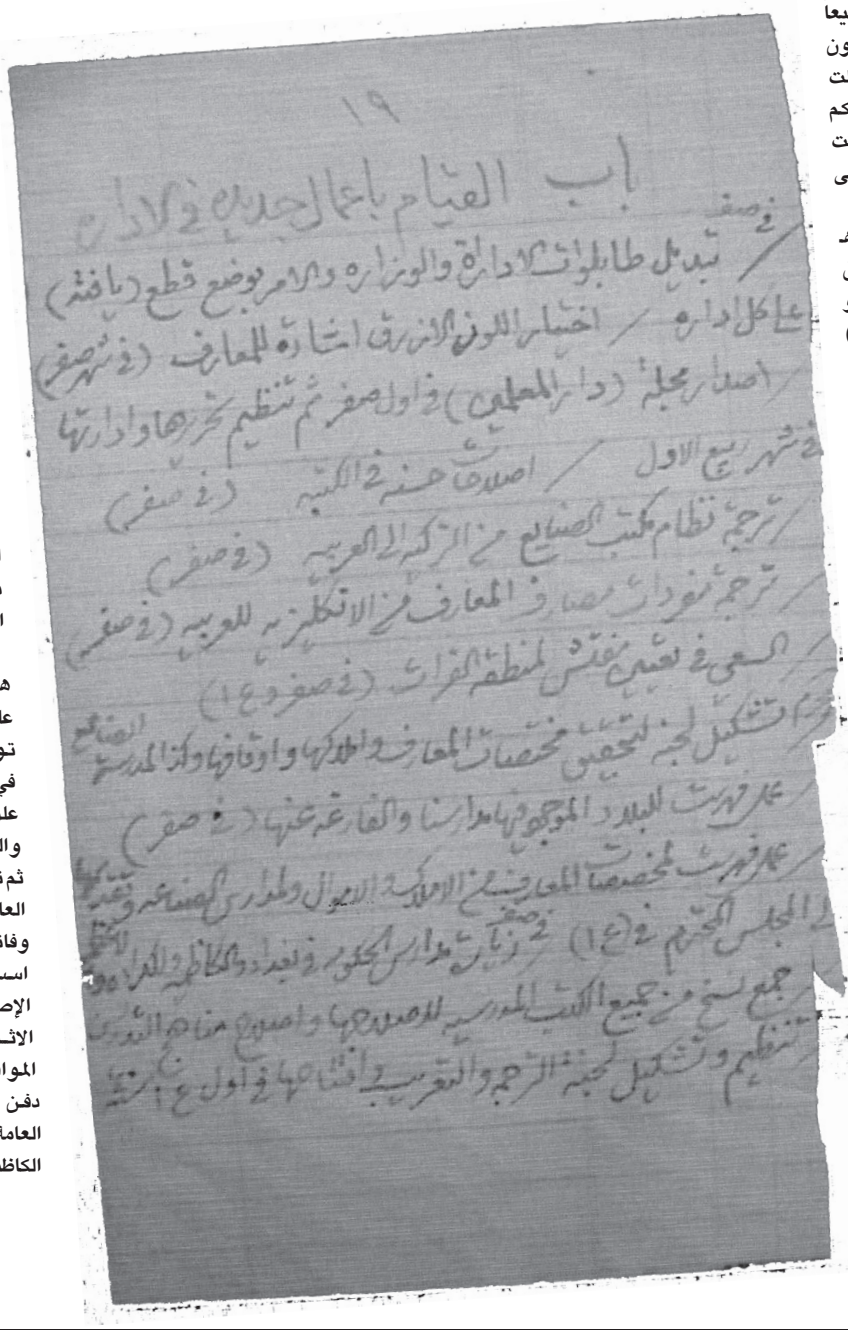

أجيز السيد بأجازات كثيرة من أعلام عصره، بعضها اجتهادية وحديثية، وبعضها الآخر حديثية فقط.

فمن المشايخ الذين أجازوه اجتهاداً ورواية:

١- السيد إسماعيل بن السيد صدر الدين الصدر.

٢- السيد مصطفى الحسيني الحجة الكاشاني.

٣- السيد محمد المجتهد الكاشاني.

٤- السيد محمد بن محمد باقر الحسيني الفيروز آبادي.

٥- السيد محمد مهدي الحكيم الحسيني الحائري.

٦- السيد مولوي الهندي.

تلامذته:

تخرج علي يد السيد عدد كبير من طلبة العلم، إذ عرف عنه أنه كان في تدريسه يتميز بالإحاطة التامة في الموضوع بحيث يأنس تلاميذه إلى حسن بيانه، وعذوبة تعبيره، مما يجعل المستمع مأخوذاً في متابعة البحث، وكان من بين تلاميذه جماعة انتشرت آثارهم واتسعت شهرتهم وساهموا في الكثير من المحافل الأدبية والقضائية، نذكر منهم:

- الشيخ جعفر النقدي المشهور بالعماري لولادته في مدينة العمارة الذي تميز بسرعة البديهة وكثرة نظم الشعر.
- الشيخ محمد رضا الشبيبي، الذي يعد من رجال الفكر الأدبي والسياسي والعلمي.
- الشيخ علي الشرقي، الذي كان من أبرز شعراء النجف، بل العراق في تلك الفترة والذي اشترك في حرب الجهاد وثورة العشرين.
- السيد محمد سعيد كمال الدين المفكر والسياسي والأديب البارع.
- السيد حسين كمال الدين الذي عرف بسعة الفكر وسمو الروح والوطنية ضد المحتل.
- الشيخ عبد العزيز الجواهري الذي عرف في أيامه بمؤهلاته الأدبية،وكفاءته التاريخية.

فضلاً عن هذه الأسماء هناك غيرهم من الذين درسوا على السيد هبة الدين وتابعوا توجيهاته، وكانت تدريساته في مقتبل عمره تنصب ضمن علوم البلاغة والمنطق والفلسفة والهيئة والعقائد والفقه والأخلاق ثم تمخض لتدريس الاختصاصات العالمية في الفقه وأصوله.

وفاته:

استمر هبة الدين بدعواته الإصلاحية حتى وفاته فجر يوم الاثنين ٢٦ / شوال ١٣٨٦هـ الموافق ٦ / شباط / ١٩٦٧ حيث دفن في مكتبته(مكتبة الجوادين العامة) التي اسسها داخل الصحن الكاظمي الشريف .

المقال فصل من كتاب تذكاري عن الراحل هبة الدين الشهرستاني

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (2059)
السنة الثامنة
الخميس (3)
اذار 2011

هبة الدين الشهرستاني رائد في التحديث بالعراق

إبراهيم العاتي

لقد مر المسلمون في القرون المتأخرة من تاريخهم بحالة كبيرة من التخلف والتدهور الحضاري علي مختلف الأصعدة السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، رافقه تقدم متسارع عند أمم أخرى، وبخاصة في أوربا، شمل مختلف المجالات، مما أهّلها لأن تلعب أدواراً سياسية قوية على الصعيد العالمي، وتتطلع لمد نفوذها نحو الدول الأخرى، حيث بدأت حقبة الاستعمار، وخضعت أغلب بلدان العالم الإسلامي للاحتلال العسكري الذي رافقه غزو ثقافي خطير يهدف إلى مسخ هوية الأمة والتشكيك في ثوابتها الدينية والعقَدية، وزعزعة منظومتها القيمية والأخلاقية. وقد بلغ ذلك الغزو قمته في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

حينذاك نهض المصلحون في أكثر من مكان في العالم الإسلامي، ليحللوا أسباب التخلف، ويحددوا مقومات النهضة، ويشخصوا علة الداء كي يصفوا له الدواء. وكان من أبرز هؤلاء في العراق الإمام المصلح السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني، الذي ولد في سامراء عام ١٨٨٤، فتفتح وعيه على الأحداث والتحولات الكبيرة التي حصلت على الحد الفاصل بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وبخاصة الاكتشافات العلمية التي حققت للغرب تقدمه العلمي وتفوقه السياسي والعسكري، وكانت مثار اهتمام هذا المصلح، فانصرف لدراسة العلوم الطبيعية بالإضافة لدراسته الدينية المتخصصة، ودافع عن العلائق الوثيقة بين العلم والدين، وأصدر مجلة العلم في النجف عام ١٩١٠ فكانت أول مجلة عربية من نوعها في العراق، وشكلت منبراً تنويرياً ساهم في تكوين النخب الثقافية والدينية وقادة الرأي والسياسة البارزين في تلك الحقبة كالشيخ محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي وغيرهما. كما أصدر كتابه الشهير (الهيئة والإسلام) الذي نقض فيه مبادئ الهيئة القديمة أو علم الفلك القديم بأدلة علمية قوية اجتهد أن يجد لها أساساً في القرآن والسنة، ليثبت توافق العلم والدين.

ويعد السيد هبة الدين رائداً في ميدان التفسير العلمي لا للقرآن وحسب بل للسنة المطهرة وروايات أهل البيت، وفي ذلك خاطبه الشاعر والمفكر العراقي جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ ـ ١٩٣٦): (وقد أعجبني سعة اطلاعك على علم الفلك، ذلك العلم الذي عزّ حتي في الغرب من يتضلع فيه، إعجابي بسعة اطلاعك على نكات الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأسرار علوم العترة الكريمة). وهذا الخطاب يدحض ما صوره الدكتور علي الوردي من علاقة متناقضة بين الرجلين رغم اتفاقهما في موضوع التجديد من حيث المبدأ.

الأمة التي يقودها الفجار والخونة والجهلاء والجبناء محكوم عليها بالفشل والتقهقر والانقراض. وخطر سيادة أمثال هؤلاء، كالمرض الفتاك، محدق بكل أمة لو لم يظهر المصلحون الذين هم ألسنة حق تتدارك الأمور قبل فوات الأوان.

وفي مقالة له في مجلة العلم عن (لزوم الإصلاح) يقول السيد هبة الدين: (إن النزوع الى هدم صروح الأوهام، ومحاربة الخرافات والبدع من أهم وظائف الرسل والأنبياء، ومن أوجب التكاليف على كل ذي علم وقدرة في كل مذهب وشريعة، عالماً كان أو أميراً، كاتباً أو فقيهاً، شاعراً أو حكيماً، واعظاً أو خطيباً.... والكل يوم الحساب مسؤول. إن روح الدين يأخذ يوم الحشر ناصية الذين تمكنوا من إصلاح أبنائه ومنتحليه ثم لم يفعلوا، ويؤاخذهم على إهمالهم وتسامحهم أخذ عزيز مقتدر).

إن الإصلاح كان القضية الكبري التي شغل بها السيد هبة الدين منذ مطلع شبابه لأنه المقدمة الضرورية لتحقيق النهضة التي يعرّفها فيقول: (النهضة قيام جماعة أو فرد بما يقتضيه نظام الشرع والمصلحة العامة)، ومعنى ذلك أن النهضة التي يراد منها تحقيق مصلحة الجماعة أو الأمة لابد أن تستند إلى أساس شرعي.

وتاريخ الإنسانية في رأي السيد سلسلة من النهضات قد تختلف في أشخاصها وأهدافها وأزمنتها وأمكنتها ولكنها واحدة في حقيقتها، حيث يقول: (وحقيقة النهضة سيالة في الأشخاص والأمم والأزمنة والأمكنة، ولكن بتبدل أشخاص واختلاف غايات ومظاهر. وما تاريخ البشر سوى نهضات أفراد وجماعات وحركات أقوام لغايات).

وتلك قراءة حركية (ديناميكية) للتاريخ لا قراءة سكونية، فالتاريخ الإنساني عنده هو تاريخ النهضات سواء كانت فردية أو جماعية، والنهضة حركة ونشاط مستمر. وقد يسأل سائل عن الفترات التي تمر بها الأمم في مرحلة سبات هل تخرج من التاريخ لأنها لم تشملها نهضة؟ هذا قد يجاب عنه بأن مراحل السكون هي استعداد كامن لنهضة جديدة، وبذا يصح القول أن النهضة شاملة لكل مراحل التاريخ البشري. هذا ما يخص النهضة، فماذا عن المصلحين وهم رواد النهضة ودعاتها؟ يقول الشهرستاني: (إن أية أمة اتخذت فاجرها إماماً، وخونتها حكاماً، وجهالها أعلاماً، وجبناءها أجناداً وقواداً، فسرعان ما تنقرض ولابد أن تنقرض. هذا خطر محدق بكل أمة لو لم يتداركه ناهضون مصلحون، وعلماء مخلصون، وألسنة حق تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، فيضربون المعتدي على يده ويوقفونه عند حده).

فالأمة التي يقودها الفجار والخونة والجهلاء والجبناء محكوم عليها بالفشل والتقهقر والانقراض. وخطر سيادة أمثال هؤلاء، كالمرض الفتاك، محدق بكل أمة لو لم يظهر المصلحون الذين هم ألسنة حق تتدارك الأمور قبل فوات الأوان.

ونكاد نلمس مما كتبه السيد هبة الدين في مؤلفاته ومقالاته، الأساس الفكري لعمله الإصلاحي والجهادي والاجتماعي. فلقد كان رجلاً يريد التغيير والإصلاح دون أن يساوم على مبادئه كثمن لذلك. والإصلاح يحتاج لتهيئة البيئة المناسبة عن طريق نشر الوعي وتنقية الأذهان مما علق بها من أدران الجهل والتخلف والخرافة، وهو ما انشغل به منذ مطلع شبابه.

العلم والدين

وما دام العلم هو العنوان الأبرز للحضارة الحديثة الذي مازال يبهر الأجيال باكتشافاته منذ كوبرنيك وغاليله وحتى يومنا هذا، وأنه قام على أساس التعارض مع تصورات السلطة الكنسية التي لاقى منها العلماء العنت والاضطهاد، فقد سعى السيد هبة الدين إلى رفع ذلك التعارض بين العلم والدين قائلاً: (من عرف البشر وتاريخه، وسبر الأديان وتاريخها، اعترف بأن النهضة الأولى كانت حركة تدار بمحور الدين، وأن الدين هو المحرك الأول للمجتمع البشري بالقياس إلى محركاته الأخرى، لو لم نقل إنه الكل في الكل، كما لا تردد في أن العلم وليد من الدين وربيب أحضانه في مختلف العصور، غير أنه قد يبرح في حياته من حياده، فهو مؤيد للدين إذا توافقا أو معارض له إن تخالفا).

والدين الإسلامي على، وجه الخصوص، حث علي العلم والتفكر والنظر في الموجودات لاستخلاص الحقائق، والشواهد على ذلك كثيرة

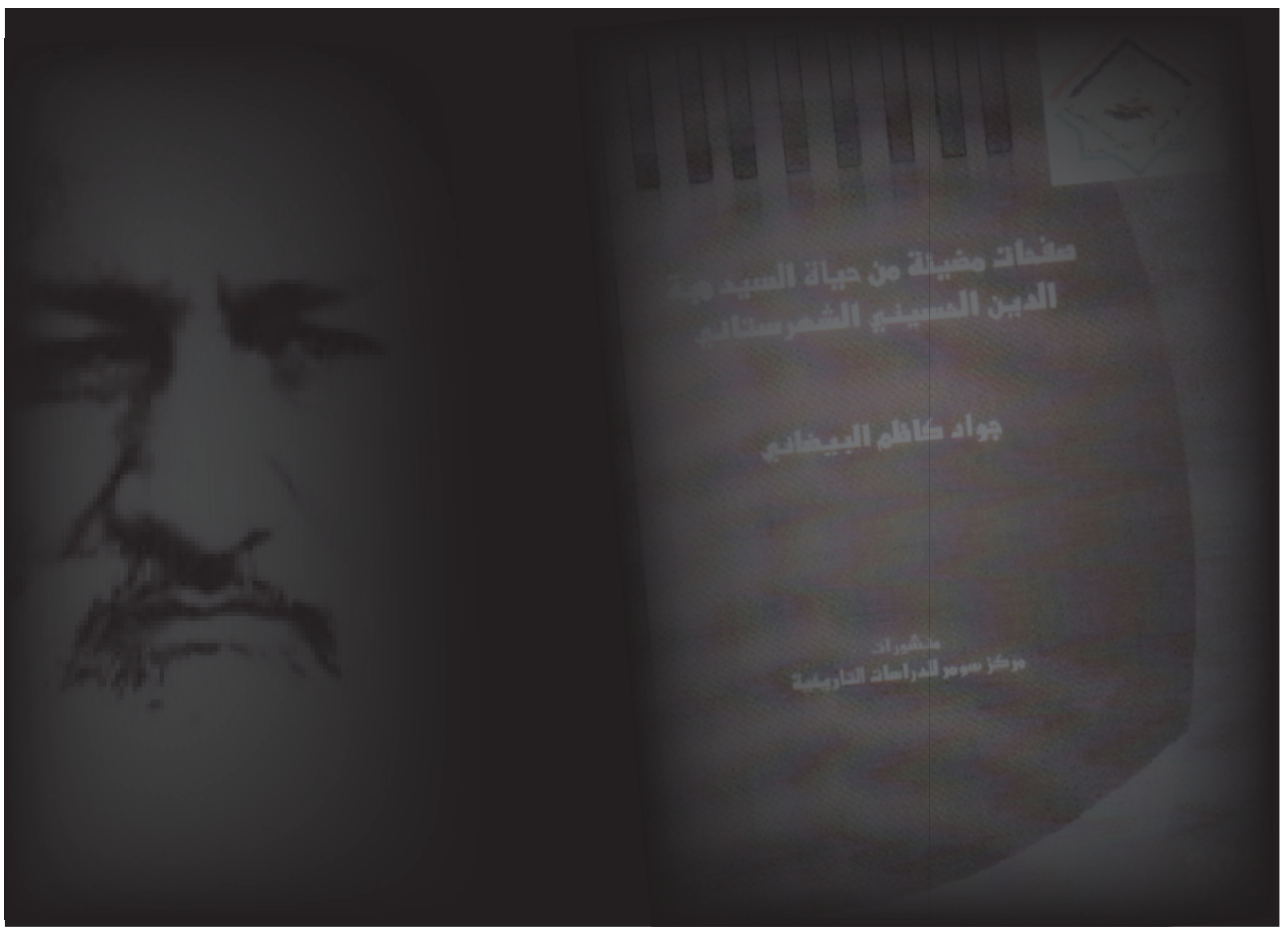

من الكتاب والسنة. قال تعالى: (ولا تقْفُ ما ليس لك به علم) و(هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون). وأعظم نهضة علمية قامت في العصر الوسيط وكانت سبباً رئيساً للثورة العلمية الحديثة، نشأت في ظل الإسلام واستضاءت بهديه، وجابر بن حيان تلميذ الإمام جعفر الصادق، وأبرز من ساهم في تطور علم الكيمياء في العصور الوسطى، أحد الأمثلة الكثيرة للعلاقة الوثيقة بين العلم والدين في الإسلام.

أما الاضطهاد الذي تعرض له العلماء على يد السلطة الكنسية في مطلع العصور الحديثة فتتحمل وزره تلك السلطة، والدين منه براء، ومرده لقصور النظر، وغرور القوة، وتدخل من غير أهل الاختصاص، ولكن لا يمكن اتخاذه مقياسا للعلاقة بين العلم والدين، وخاصة في الإسلام.

وإذ حلّ السيد هبة الدين هذا الإشكال راح يتحف الأجيال بكل طريف مبتكر في مجلة العلم وكتبه الأخرى، من آخر ما وصل إليه العلم الحديث من اكتشافات، ومستنبطاً من الكتاب والسنة الكثير من الحقائق العلمية التي جاء بها الإسلام وأكدها العلم الحديث، فأحدث حالة تنويرية داخل الجامعة الدينية وخارجها حفزتها لمراجعة الأوضاع المتخلفة التي يرزح تحت نيرها المجتمع، وضرورة تجاوزها بشكل سليم للحاق بركب الحضارة قبل أن يجرف تيارها الشباب المنبهر، وهو ما حصل للأسف، حينما طغى صوت الجمود على صوت التجديد والإصلاح. لكن ذلك عمق من علاقاته مع المصلحين والمجددين في العالم العربي والإسلامي كالشيخ طنطاوي جوهري (ت ١٩٤٠) والشيخ رشيد رضا الذي نشر له في المنار مقالات عديدة، وغيرهما.

لقد شارك الشهرستاني في حرب الجهاد ضد الانكليز الذين احتلت قواتهم ميناء الفاو ثم البصرة في بداية الحرب العالمية الأولى، ثم في ثورة العشرين التي تفجرت شرارتها في مدينة الرميثة بالفرات الأوسط عام ١٩٢٠ وعمت أنحاء كبيرة من العراق، فحكم عليه الإنكليز بالإعدام الذي لم ينفذ بسبب مجيء فيصل بن الحسين كملك للعراق وإعلانه العفو العام. وقد عين السيد هبة الدين وزيراً للمعارف في أول حكومة تشكل بعد قيام الحكم الوطني عام ١٩٢٢، فكان له دور مشهود في تعريب الدواوين، وإقصاء المستشارين الأجانب، والحفاظ على الهوية الوطنية، وافتتاح العديد من المدارس، والاهتمام بتعليم المرأة يوم كان ذلك يعد مروقاً عن الدين، وإرسال البعثات إلى الخارج.

وبعيداً عن السياسة لم يتوقف هذا المصلح عن التأليف والكتابة وتأسيس المشاريع الثقافية والخيرية والدعوة للوحدة الإسلامية، حتى وفاته عام ١٩٦٧ ضارباً المثل الأعلى في الثبات على المبدأ والصمود في وجه العواصف التي أثارها ضده أنصار الجمود الذين لم يحسنوا قراءة الواقع وما ينبئ به المستقبل، فصاروا خارج التاريخ بينما دخل هو التاريخ من أوسع أبوابه.

عميد الدراسات العليا - الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية (لندن

مجلة العلم وبداية التطور الصحفي في العراق

حسن الحكيم

كان عام ١٩١٠ م بداية ظهور اول مجلة علمية متطورة في العراق، في الوقت الذي أخذت الدولة العثمانية نحو الانهيار، او اقتراب (الرجل المريض) من الموت، ومن ثم اخذ الاستعمار الأوربي يزحف على العالم، ويبسط سلطانه على منطقة الشرق، وفي هذا الظرف السياسي العصيب انبثقت صحوة إسلامية أخذت تنادي بالدستور، وكان العلامة السيد محمد على الحسيني الملقب بهبة الدين الشهر ستاني احد أقطاب الصحوة الإسلامية في العراق، ومن انصار المصلح الكبير الإمام الاخوند الشيخ محمد كاظم الخراساني، وفي خضم الوضع الراهن المضطرب أصدر الشيخ السيد الشهرستاني (مجلة العلم) في مدينة النجف الاشرف بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م.لتكون لسان حال الطبقة الإسلامية الواعية، وكتب على صدر مجلة العلم: (مجلة شهرية دينية فلسفية سياسية علمية صناعية)، وقد اراد الشهر ستاني من مجلته ان تكون علمية متطورة، في وقت عم الظلام العالم الإسلامي، وطرز اعداد المجلة ببيتين من الشعر هما:

العلم انفس شيء أنت ذاخره
ومن يدرس العلم لم تدرس مفاخره
اقبل على العلم واستقبل مباحثه
فأول العلم اقبال وآخره

وقد حمل كل بيت لفظة "العلم" مرتين، وهذا مما يعطي للمجلة صفة العلم كما يوحي إلى ذلك اسمها، وقد كتب في العدد الاول من المجلة مقطوعة منها: "والامل من حملة العلم وحماة الدين، ومن يشاركنا في الغاية والغرض ان يسعى في نشر هذه الصحيفة ويساعدنا بفيض يراعه ويجد ما يتمناه من غرس اصول الدين والعلم في اراضي القلوب وتكميل الافكار واصلاح الشعوب وفك مقاليد المضرة من عقولهم".

وقد كشف هذه المقطوعة عن منهجية المجلة وأهدافها العلمية بما يتناسب مع خطة الاصلاح التي حملتها حركة الدستور في النجف الاشرف والتي تعرف باسم "المشروطة" وذكر الاستاذ فائق بطي في كتابه "صحافة العراق": ان مجلة العلم قد عدها النقاد والشعراء انذاك من ارقي المجلات العلمية والفلسفية".

ولكن ما يبدو ان الحملة الضارية التي شنها اصحاب "جماعة المستبدة" المناهضة للحركة الدستورية ادت الى ايقاف التيار الاصلاحي، وعند ذلك توقفت مجلة العلم عن الصدور. وقد اراد العلامة السيد الشهرستاني استئناف صدور عام ١٩٥٤م، بعد انقطاع ثلاث واربعين سنة، فأصدر عدداً واحداً ثم توقفت المجلة بسبب قانون المطبوعات.

وان الباحث المتفحص في اعداد مجلة العلم يجد فيها اراء جريئة داعية للاصلاح والوحدة، والاطلاع علي مستجدات العلم والحضارة في العالم، ومسايرة الشعوب الاسلامية الداعية للتجديد، وقد اشار الامام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء إلى تاريخ صدور المجلة بقوله:

(هبة الدين) اتانا
بعلوم مستفيضة
وله التاريخ (أهدي
طلب العلم فريضة)

ويبدو ان الشباب الواعي وطلبة الحوزة العلمية وجماعة الاصلاح كانوا وراء السيد الشهرستاني في ارائه وافكاره، فقد كانوا يتلقفون المجلة عند صدورها، في الوقت الذي كان طلبة العلم في الحوزة النجفية يطالبون بالدروس المألوفة من فقه واصول وحديث وتفسير وادب وفلسفة ونحوها، ولم تكن المجلات وان

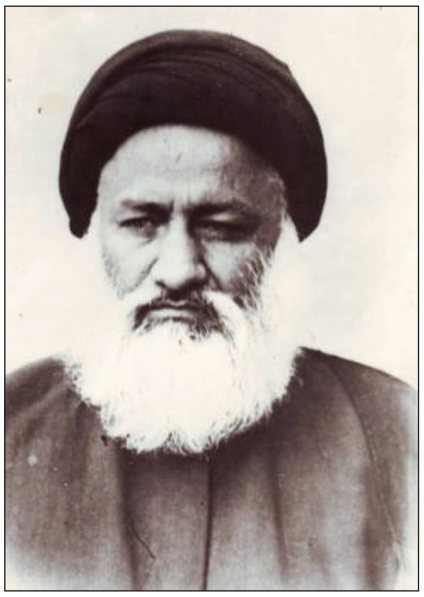

كانت علمية محببة لئلا ينصرف الطالب الحوزوي عن دروسه الاساسية، ولكن مجلة العلم فرضت وجودها على الجميع، وارادت الطبقة الواعية من طلاب العلم الاطلاع على المستجدات الحديثة وما يدور في العلم من مخترعات، ولذا كانت المجلات السورية والمصرية واللبنانية تباع خفية لئلا يتهم رجل العلم بالانحراف وكانت مكتبة الاستاذ عبد الحميد زاهد الكائنة في الصحن الحيدري الشريف تقتني المجلات العربية والكتب الحديثة، ويعمد صاحب المكتبة علي اخفائها بين طيات الكتب الدينية، وكانت "مجلة العلم" منذ صدورها عام ١٩١٠ صاحبة المقام الارفع من بين المجلات الحديثة، حتى ان مقتنيها قد حملوا راية الاصلاح بيد، وراية الثورة المناهضة للاستعمار باليد الاخرى، وان الطبقة المعارضة للسيد الشهرستاني وانصاره.

قد اعتكف بعضهم في البيوت عند قيام الثورة النجفية عام ١٩١٨ وثورة العراق الكبرى عام ١٩٢٠، وان بعضهم الاخر قد صافح المستعمر الغاصب، وان المتخصص بتاريخ النجف الأشراف المعاصر يجد أفكار الامام الاخوند الخراساني واراء السيد هبة الدين الشهرستاني تلتقي مع افكار وآراء الامام المجاهد الشيخ محمد تقي الشيرازي، قائد ثورة العشرين الروحي، ومن بعده الامام المجاهد شيخ الشريعة الذي حمل راية الثورة حتى ايامها الاخيرة، وكان العلامة الشيخ محمد باقر الشبيبي صاحب جريدة "الفرات" والاستاذ السيد محمد عبد الحسين صاحب جريدة "الاستقلال" لسانا ثورة العشرين.

وهما امتداد لثورية السيد الشهرستاني، وقد سار على هذا النهج الاستاذ يوسف رجيب صاحب جريدة "النجف" الصادرة عام ١٩٢٥م. ومن الملاحظ ان نقول: ان الصحافة النجفية ذات العمق الوطني الثوري لم تعمر طويلاً، اذ انها تختفي دون ان تؤدي رسالتها كاملة، ولعل هذا ناتج من تفوق القوى المحافظة والمناهضة للقوى المتنورة، وما تمتلكه من دعم مادي ومعنوي يساهما في تحجيم حركة الاصلاح واضعاف مرتكزاتها.

ولكن التاريخ سوف يقول ان مجلة العلم وما صدر بعدها من صحف ومجلات نجوم لامعة في سماء الصحافة بعدها من صحف ومجلات نجوم لامعة في سماء الصحافة النجفية ومصابيح مضيئة علي طريق الاصلاح.

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم
مدير التحرير: علي حسين
التصميم: نصير سليم
التصحيح اللغوي: عبد الرزاق سعود
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

الشهرستاني رائد حركة التجديد في العراق

وُلد هبة الدين محمد علي الشهرستاني في سامراء في "(٢٤ رجب ١٣٠١ه/ ١٨٨٤م" . وقد أخذ لقبه من أخواله).

نشأ الشهرستاني في بيت علم وأدب، انتقل مع والده إلى كربلاء بعد وفاة الميرزا السيد حسن الشيرازي، واستقرّ فيها ستة عشر عاماً طلباً للعلم.

في العام ١٣٢٠ ه، هاجر من كربلاء إلى النجف لإكمال دراسته العالية، وحضر على السيد محمد كاظم اليزدي والشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني، وشيخ الشريعة الأصفهاني.

عُرف السيد هبة الدين الشهرستاني، في وسط الحوزة الدينية في النجف والكاظمية، بمحاولة الجمع بين العلم والدين، والتوفيق بين ما يستجدّ في عالم الاكتشاف والاختراع وبين الثوابت الدينية. وقد انصرف إلى التأليف والكتابة والنشر. وفي سنة ١٣٢٨ هـ، أصدر مجلّته (العلم)، وهي أول مجلة عربية صدرت في النجف، وقد "نحا فيها منحى إصلاحياً لم يألفه الناس من قبل، وهاجم بعض التقاليد الطارئة على أذهان المتدينين، وكل مصلح يتصدى لنشر آرائه فقد لاقى مقاومة وعنتاً شديدين".

قام بسفرات في مختلف العواصم الشرقية من عربية وإيرانية وهندية ومنها: سوريا ولبنان ومصر والحجاز واليمن وإيران والهند وغيرها، وكان خلال إقامته داعياً للدين، ونشر المعارف، وقد استغرقت رحلته هذه ثلاث سنوات ١٣٣٠ ه-١٣٣٣ هـ، وعاد في أول رمضان إلى النجف.

وفي الجانب السياسي والوطني، إضافة إلى دوره في الحركة الدستورية، شارك هبة الدين في ثورة العشرين وكان من طليعة أبطالها والمهيئين لها، وفي طليعة المجاهدين ضدّ الاحتلال البريطاني عام ١٩١٤ م، كما كان أحد المقاتلين في معركة الشعيبة (١٩١٥م).

وقد ألقي القبض عليه وأودع في سجن الحلة العسكري، وأفرج عنه في رمضان ١٣٣٩ هـ.

خالف هبة الدين موقف علماء الشيعة في تحريمهم للعمل في وظائف الدولة، بعد فشل ثورة العشرين، وقيام الدولة العراقية الحديثة، وخالف موقفهم السلبي أيضاً من إجراء الانتخابات وكتابة الدستور، وإن دلّ هذا على شيء فإنّه يدلّ على أنّ الفكر الدستوري وحركة المشروطة لم تكن نزوة عند هبة الدين الشهرستاني، بقدر ما كان يمارسها عن فكر وقناعة.

اختصّ هبة الدين الشهرستاني بتدريس مواد الفلك والحساب والهيئة في الحوزة الدينية، وهي مواد علمية تتيح التفرّع بتدريسها إلى الحداثة والتقدّم، والخروج بعض الشيء عن المعتاد الديني. اتضح ذلك من سيرة حياة تلامذته في تلك المواد: الشيخ كاظم كاشف الغطاء، والشيخ جعفر النقدي، وسعيد كمال الدين، وغيرهم.

اتصل من النجف مبكراً بصحف القاهرة وأنديتها العلمية ومطبوعاتها، التي صارت ترد إليه بكثرة، فتجمع عليه المتعطشون من أبناء العلم الذين حُجبت عنهم.

في هذه الآونة من أوائل حياته، أنتج أول أثر قيّم له هو كتاب "الهيئة والإسلام"، الذي وسّع أفق الذهنية الدينية، وفتح لها أبواباً جديدة من العلم والاتصال بالفِكَر الغربية، والمخترعات الحديثة آنذاك.

وبهذه الخلفية استمرت مجلته (العلم) حوالي عامين. وقد ذاع صيته عبر محاضراته العلمية التي كان يلقيها في النجف، فتبوّأ بطلب من الملك فيصل الأول منصب وزير المعارف، في أول وزارة شكّلتها الحكومة العراقية ١٩٢١م. كما أُسند إليه منصب رئيس مجلس التمييز الشرعي الجعفري.

كان هبة الدين جريئاً فيما يكتب ويقول، مقاوماً التقليد الديني، في أمور من الصعب تناولها آنذاك، فمن جرأته أنّه أصرّ على فصل المستشار البريطاني لوزارة المعارف، وحينها خلق ضجة في الوسط السياسي.

وفيما يتعلّق ببعض "الممارسات الدينية"، نشر رسالة في "تحريم نقل الجنائز" مثبتاً بطلان هذه العادة دينياً. وقد خالف الشهرستاني في هذه القضية آراء العامة، ونتيجة لذلك صوّر البعض الشهرستاني على أنّه كافر وملحد، وتعرّضت حياته للخطر. وأغلقت مجلته (العلم) في أواخر العام ١٩١١م. وأُجبر على مغادرة النجف والعراق. وأمضى عامين في الهند، ثم أدّى مناسك الحج في مكة قبل أن يستقر في كربلاء لينتقل منها إلى بغداد.

وفي هذا الإطار، سجّل الشهرستاني موقفاً جديداً، وهو في بغداد، باستنكاره ممارسات العنف خلال طقوس عاشوراء، إذ أفتى بتحريم ضرب الرأس بالسيوف والبدن بالسلاسل، واستطاع خلال إقامته في الكاظمية، استبدال موكب العزاء الذي تصاحبه ضجة وأبواق وممارسات عنيفة، إلى حفل تأبين يشارك فيه الكتّاب والشعراء. استمرّ هذا التقليد سبع سنوات، ولكن المجابهة احتدمت بينه وبين ممارسي تلك الطقوس وداعميهم من رجال الدين المتنفّذين، فتعرّض إلى حملة اضطرّ بعدها إلى الاعتزال في البيت.

توفّي عالم الدين المثقّف هبة الدين الشهرستاني عن عمر ناهز الثالثة والثمانين (١٨٨٤-١٩٦٧م) مخلّفاً تركة معرفية تربو على خمسة وعشرين كتاباً مطبوعاً

يمكننا أن ندرك من خلال كل ما ذُكر أنّ شخصية الشهرستاني تمثّل النموذج الأمثل لثقافة التنوير في مرحلته، فهو لم ينفصل عن محيطه عندما تبنّى الأفكار الجديدة، وحاول التوفيق بينها وبين معتقده الديني، وهو ما يُعتبر تسوية صعبة التحقق بين الحداثة والتقليد.

عراقيون
من زمن التوهج